د. خلدون الأحدب

سوانح وتأملات في

قيمة الزمن

دار القلم
دمشق

سوانح وتأملات في

قيمة الزمن

دار القلم
دمشق

أسّسها:
محمد علي دولة
سنة ١٩٦٧م

الطبعة السادسة
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

حُقوق الطَّبع مَحفُوظَة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

سوانح وتأملات في

قيمة الزمن

د. خلدون الأحدب

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ الإِمَامُ الحَسَنُ البَصْرِيّ :

« يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ،
كُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ »

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة الطَّبْعَة الرَّابعَة

الحمد لله وليِّ كل نعمة ظاهرة وباطنة، لا نحصي ثناءً عليه سبحانه هو كما أثنى على نفسه، والصلاة والسلام على المبعوث بالهدى ودين الحقِّ، فكان رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه الذين عقلوا عن ربهم كتابه الذي أنزله تبياناً لكلِّ شيء، وعن نبيهم سُنَّته المحجة البيضاء، فجاهدوا في الله حقَّ جهاده، فمكَّنوا لدينه الذي ارتضى، وأعلوا مناره، فَسَعِدُوا، وسَعِدَت بهم البشرية، فكانوا خير أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس.

وبعد: فإن من خصائص هذا الدين الربَّاني ومقوماته الذاتية، أنه ينطوي على جميع عناصر الإحياء والنهضة التي تعود بالأُمَّة المسلمة إلى موقع الشهود الحضاري، مستأنفةً لدورها، مؤديةً لرسالتها الإنسانية السامية.

ومن العوامل الرئيسة التي تبلِّغ الأُمَّة غاياتها تلك، اهتمامها بقيمة الزمن، الذي هو أحد عناصر الإحياء والنهضة، ومن ثَمَّ نجد بالغ تأكيد هذا الدين عليه، وحرصه على بيان أوجه اغتنامه والاستفادة منه.

وهذا يوجب على حركة الإحياء الإسلامي، المبشِّرة بالنظام الحضاري البديل، الساعية إلى تأصيله وتمكينه وإظهاره، عن بصيرةٍ، وعمق تجربةٍ، وحسن فِقْهٍ؛ أن تحلَّ عامل الزمن المحلَّ الجدير به، مدركةً أهميته وخطورته، خاصةً في عصر يسابق الزمن نفسه! حتى وجدنا أنفسنا قد شُغِلْنَا عن هموم اليوم، وغيرنا قد شُغِلَ بهموم الغد.

وكان للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي متَّع الله به فضل السبق في الكتابة في هذا الموضوع، فأخرج منذ سنوات عدة كتابه «الوقت في حياة المسلم».

ثم جاء على إثره أستاذنا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة حفظه المولى، فأصدر كتابه «قيمة الزمن عند العلماء».

ثم جاء هذا الكتاب ليساهم في تجلية هذا الموضوع والدعوة إلى الاهتمام به، وفق: أسلوب ومنهج يختص بهما، مع الاستفادة من الكتابين المذكورين كما هو مبين في محلّه منذ الإصدار الأول للكتاب عام ١٤٠٦هـ.

ثم جاء أفاضل آخرون فكتبوا في ذلك أيضاً، وأدلوا بدلائهم، مستفيدين ممن سبقهم، مشاركين مساهمين، فأجزل الله للجميع المثوبة والأجر.

وهذه الطبعة الجديدة حملت بعض الزيادات التي تثري الموضوع، مع التنقيح لما كان.

وما توفيقي إلاَّ بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو ربّ العرش العظيم.

جُدَّةَ في الثاني من شهر رمضان المبارك ١٤١٣هـ
والموافق لـ ٢٣ شباط (فبراير)/ ١٩٩٣م

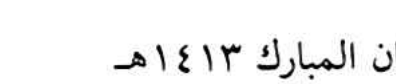

أستاذ الدراسات الإسلامية
في جامعة الملك عبد العزيز
في جُدَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة الطَّبْعَة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً كما يحب ربّنا ويرضى، والصلاة والسلام على من أرسله ربّه إلى البشرية معلِّماً وهادياً ومبشِّراً ونذيراً، فَدلَّ على الله بحالِهِ وقَالِه، فاهتدت به قلوب غُلْفٌ وعقول صم، وسلَّم تسليماً كثيراً، ورضي الله عن صحابته ومن أتى بعدهم، الذين اقتفوا آثاره، فحافظوا على أزمانهم التي هي أعمارهم، فربحوا الحسنيين، إعماراً لدنياهم في عطاء حضاري متميز، وعملاً لآخرتهم، التي هي المستقر ودار المقام، فكانوا في ذلك كلّه شهداء على الناس وكان الرسول عليهم شهيداً.

وبعد: فإن بداية كل طريق صحيح نحو المستقبل هي: (نقد الذات)، وهو الوجه الآخر لموضوع هذا الكتاب.

وهذا الوجه يحمل في طياته دعوةً ملحةً للانتماء إلى العصر والمستقبل، الانتماء الواعي المنتج المساهم الموجِّه، المرتبط بهُويتنا وخصائصنا.

وإن من أهم عوامل هذا الانتماء، الالتفات إلى قيمة الوقت، الذي هو ثالث عناصر المعادلة الحضارية إلى جانب عنصري الإنسان والتراب.

الإنسان: بما يحمل من عقيدةٍ وفكرٍ.

والترابُ: بما يكتنز من ضرورات الحياة والطاقات.

والوقت: باستثماره، لأن كل حقبة تذهب لا رجعة لها.

إنَّ التفنن الذي تعيشه أمتنا في تضييع أوقاتها على الصعيدين العام والخاص، أدى إلى أن يمضي العالم بدوننا إلى المستقبل، واعتبارنا من أيتام التاريخ، وإن لم يتحول هذا التفنن إلى تفنن في استغلال هذه الأوقات وإعمارها على الوجه

الصحيح، فستبقى الهوة بيننا وبين المستقبل كبيرة، بل ستصبح في اتساع مطرد، وستبقى حيث نحن نستورد المنتجات الحضارية ونستهلكها، وسيصبح بقاؤنا بالتالي تحت سيطرة مطلقة وفريدة لمنتجيها.

وإني فيما ذكرته من أمثلة حيَّة فاعلة لبعض أفذاذ علماء هذه الأمَّة في حرصهم على لحظات أوقاتهم التي هي حياتهم، لم أشأ أن يكون دورنا دوراً فرزدقياً ـ نسبة إلى الشاعر الفرزدق ـ وذلك في قوله:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

بل رغبت في أن نرى صورتنا في مرآتهم، فنعمل كما عملوا، ونقدِّم كما قدَّموا، ونسهم كما أسهموا، في عملية تواصل وثيق لا ينقطع، لا أن نتغنَّى بهم دون أن نتعنَّىٰ مثلهم.

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

وإني لأرجو أن يكون نفاد الطبعة الأولى في قرابة أشهر ثلاثة من صدورها، قد حمل معه بدايات إدراك لأهمية الموضوع وخطورته في مستقبل الأمَّة أفراداً ومجتمعات، وعساه أن يكون مؤشراً إيجابياً نحو التطلع إلى المستقبل والعمل له.

ربنا أتمم لنا نورنا، واغفر لنا خطايانا، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

جُدَّة في ١٤٠٧/٦/٢٢هـ
والموافق لـ ١٩٨٧/٢/٢٠م

وكتبه
خلدون محمد سليم الأحدب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران/ ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء/ ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب/ ٦٩ ـ ٧٠].

وبعد: فما زلنا نسمعُ عن عقد مؤتمرات هنا وهناك تتناول مختلف القضايا العلمية والثقافية والحضارية، والكثيرُ منها طيِّبٌ محمودٌ لو عرفت مقرراتها طريقاً أبعد من القاعات الفخمة التي تنعقد فيها.

وثمَّة قضية حضارية هي في موقع القلب خطورة وأهمية بالنسبة للقضايا التي تُطْرح وتُدْرس ويُدْعَىٰ لها.

وهي لِبُعدِ غورها، وكبير أثرها، وشديد مِساسها في الدَّفْع والنَّماء الحضاري، قضية أكبر من أن يُكتفى في طرحها ومعالجتها بعقد مؤتمرات أو حلقات دراسية على أهمية ذلك وفائدته.

إنها تحتاج إلى أنْ تُرْضَعَ مع لبن الأمهات، وأن تكون في مَسْلَكِ الآباء والمجتمع أفراداً ومؤسسات، واضحةَ المقصد، ساميةَ الهدف، مرئية النتاج.

إنها قضية: (قيمة الزَّمَن وأوجه إعْمَاره).

إنَّ من أهم أسباب زمن الجَدْبِ الحضاري والمدني الذي تحياه أمتنا في مختلف الحقول والمجالات: علميةً كانت، أو تقنية، أو معرفية، أو ثقافية، أو اقتصادية، أو قيماً أخلاقية، تبذيرنا إلى حَدِّ السفه في تضييع أوقاتنا التي هي أعمارُنا، وعدم إعْمَارِنا لها على وجهها مراعين الأهم فالمهم.

وقد أثمر زمن الخِصْبِ الحضاري في هذه الأمّة عندما كانت متمسكةً بإعْمارِ أَعْمارِها، محاسبة نفسها على دقائق الزمن فضلاً عن ساعاته وأيامه، مُدْرِكَةً لشرف الرسالة التي تحمل، وعظيم الأمانة التي كلِّفت بها، ريادَتها في جميع أنواع العَطَاء الحضاري، وأنتج حضارة كانت في موقع الصدارة بين سائر الحضارات، متميزةً بكونها: ربانية المنشأ، عالمية الأهداف، إنسانية النزعة، وبالتالي كان صُنَّاعها وحملتها خير أمَّة أخرجت للناس.

وهذه الصفحات التي بين يديك ما هي إلاَّ ومضات وسوانح في قيمة الزمن وأوجه اغتنامه، لعلها تنير بعض الطريق، وتشحذُ بعض الهمم، وتؤدي بعض الواجب.

وقد جعلتها في قواعد تأصيلية ليكون لها استقرار في دائرة العلم والمعرفة، ثم في دائرة الإيمان والإرادة، ثم في دائرة التطبيق والعمل إن شاء الله تعالى.

وقد قدَّمت لها بمَدْخَل ضروري يشتمل على مبحثين اثنين:

الأول: في قيمة الزَّمَن في الكتاب والسُّنَّة.

والثاني: في ارتباط قيمة الزَّمَن بالغاية من الخَلْق.

أما القواعد التي تناولتها، فهي:

الأولى: الزَّمَنُ هو أجلُّ وأشرفُ ما يحصله العقلاء بإجماع العلماء.

الثانية: مِنْ شرف الزَّمَان أنَّ الإنسان العاقل يحرص على اغتنامه إلى حال النَّزْع والذِّمَاء.

الثالثة: الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييعٌ للوقت الحاضر.

الرابعة: التسويف عجز وكسل.

الخامسة: اعتقاد التفرغ من الشواغل في مستقبل الأيام وهمٌ وسراب.

السادسة: إنما تضيع الأزمان بصحبة البَطَّالين.

السابعة: إنما تكمل العقول بترك الفضول.

الثامنة: ترويح النَّفْس بِقَدْرِه ووجهه كسبٌ للزمان، والقلب إذا كَلَّ عَمِي.

التاسعة: دوام العطاء ولو كان قليلاً، يكونُ منه ما يعجز.

العاشرة: من شغل نفسه بغير المهمِّ، ضَيَّعَ المُهِمَّ وفَوَّت الأهم.

الحادية عشرة: لكل وقت ما يملؤه من العمل.

الثانية عشرة: لله في أيام دَهْرِنا نفحاتٌ فالموفق من تعرَّض لها.

الثالثة عشرة: من طوىٰ منازلَ في منازل، أوشك أن يفوته ما جَدَّ لأجله.

الرابعة عشرة: بِقَدْر ما تتعنَّىٰ تنالُ ما تتمنَّىٰ.

وفي الختام أُزجي خالص شكري وامتناني إلى الأخ الأثير الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الشيرازي الصباغ متَّع الله به، لتفضله بقراءة الكتاب وإبداء ملاحظاته القيِّمة التي انتفعت بها، فالعلم رَحِمٌ بين أهله.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وهو حسبي ونعم الوكيل.

جُدَّة في ١٨/ من شوال/ ١٤٠٦هـ
والموافق لـ ١٦/ من حزيران/ ١٩٨٦م

وكتبه
خلدون محمد سليم الأحدب

المَدْخَلُ

ويَشْتَمِل عَلىٰ مَبحَثَين:

المبحث الأول: في قيمة الزَّمَن في الكتاب والسُّنَّة.

المبحث الثاني: في ارتباط قيمة الزَّمَن بالغاية من الخلق.

المبحث الأوّل

قيمةُ الزَّمنِ في الكتاب والسُّنَّة

عرض القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة للزمن: قيمة وأهمية وأوجه انتفاع وأثراً؛ وأنه من عظيم نعم الله التي أنعم بها سبحانه.

يقول الله تعالى في بيان هذه النِّعمة العظيمة التي هي من أصول النِّعم:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل/ ١٢].

ويقول جَلَّ شأنه:

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء/ ١٢].

ويقول أيضاً:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان/ ٦٢].

أي: يخلف كل منهما الآخر، بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه.

ولبيان مزيد أهمية الزمن وأثره، نجد أن المولى سبحانه يُقْسِمُ بأجزاء منه في مطالع سور عديدة.

فيقسم بالفجر:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر/ ١ ـ ٢].

ويقسم بالليل والنهار:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل/ ١ ـ ٢].

ويقسم بالضحى:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى/ ١ ـ ٢].

وقسمه سبحانه بأجزاء الزمن تلك كان لَفْتاً للأنظار نحوها، لعظيم دلالتها عليه، ولجليل ما اشتملت عليه من منافع وآثار.

بل إنه سبحانه أقسم بالزمن نفسه، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

والعَصْرُ هو: الدَّهر ـ أي الزمن ـ على قول أكثر المفسرين، وهو الراجح كما يقول الإمام ابن قيِّم الجَوْزِيَّة رحمه الله[1]، مضيفاً أن تسمية الدَّهر عَصْراً، أمر معروف في لغة العرب.

وبه قال تَرْجُمَان القرآن عبد الله بن عبَّاس، وزيد بن أسلم، والفَرَّاء، وابن قُتَيْبَة، وهو اختيار الإمام الطبري[2].

يقول الإمام ابن القَيِّم[3] في بيان الحكمة من القسم بالعصر: «أقسم

---

(١) في «التبيان في أقسام القرآن» ص: ٥٣.

(٢) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي ٨: ٢٢٤، وتفسير الطبري: ٣٠: ١٨٧.

(٣) في «التبيان في أقسام القرآن» ص: ٥٢ ـ ٥٣.

سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه. فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام.

وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحرّ، والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات وما دونها، آيةٌ من آيات الرَّبِّ تعالى، وبرهانٌ من براهين قدرته وحكمته. فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبَّه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ، لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خَلْقَ الزمان وخَلْقَ الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشراً، تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسانٌ خاسر، إلاَّ من رحمه الله، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به، وهذا نظير رَدِّه الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين».

وللعلاَّمة النَّيْسَابُورِيّ في «تفسير غرائب القرآن»[1] لفتة في الحكمة من قسم المولى سبحانه بالعصر ـ الذي هو الزمن ـ ، يحسن ذكرها، إذ يقول: «لا شيء أنفس من العمر، وفي تخصيص القسم به إشارة إلى أن الإنسان يضيف المكاره والنوائب إليه، ويحيل شقاءَه وخسرانه عليه، فإقسام الله تعالى به دليل على شرفه، وأن الشقاء والخسران إنما لزم الإنسان لعيب فيه لا في

---

(١) ٣٠: ١٥٩.

الدَّهر، ولذلك قال ﷺ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فإنَّ الله هو الدَّهْرُ»[1]».

ويذكر الإمام فخر الدين الرازي وجوه عظمة العَصْر ـ الذي هو الزمن ـ فيقول[2]: «إن الدَّهْرَ مشتمل على الأعاجيب، لأنه يحصلُ فيه السَّرَّاءُ والضرَّاءُ، والصِّحةُ والسَّقَمُ، والغِنى والفقر. . فلو ضيَّعت ألف سنة، ثم تُبت في اللمحة الأخيرة من العمر، بقيتَ في الجنَّة أبدَ الآباد، فعلمتَ حينئذٍ أن أشرف الأشياء حياتك في هذه اللمحة، فكان الدَّهْرُ والزمان من جملة أصول النِّعَم. . .

إن الزمان أغلى وأشرفُ من المكان، فلما كان كذلك كان القَسَمُ بالعَصْرِ قَسَماً بأشرف النصفين من مُلك الله وملكوته. . .

إنه تعالى ذكر العَصْرَ الذي بمضيِّه ينتقصُ عمرك، فإذا لم يكن في مقابلته كَسْبٌ صار ذلك النقصان عَيْنَ الخسران».

أما ما جاء في السُّنَّة المطهرة في بيان نعمة الزمن وقيمته وتبعة الإنسان أمام خالقه عنه، فكان تأكيداً لما ورد في الكتاب الكريم وتفصيلاً له.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» في كتاب الألفاظ من الأدب، عن أبي هريرة، رقم (٢٢٤٦) باللفظ المتقدم. ومعنى الحديث كما قال الإمام النووي في«شرح صحيح مسلم» ١٥: ٣: «هو مجاز، وسببه أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها من موت أو هرم أو تلف مال أو غير ذلك، فيقولون: يا خيبة الدهر، ونحو هذا من ألفاظ سبِّ الدهر، فقال النبي ﷺ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فإنَّ الله هو الدَّهْرُ»: أي لا تسبوا فاعل النوازل، فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السبُّ على الله تعالى لأنه هو فاعلها ومنزلها.
وأما الدَّهْرُ الذي هو الزمان، فلا فِعْلَ له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى. ومعنى (فإنَّ الله هو الدَّهْرُ): أي فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات، والله أعلم».

(٢) في تفسيره «مفاتيح الغيب» ٣٢: ٨٤ ـ ٨٥.

فعن مُعَاذ بن جَبَل رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تزولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسْأَلَ عن أَرْبَعِ خِصَال: عَنْ عُمْرِهِ فيما أَفْنَاهُ، وعَنْ شَبَابِهِ فيما أَبْلَاهُ، وعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفيما أَنْفَقَهُ، وعَنْ عِلْمِهِ ماذا عَمِلَ فيه؟»[1].

لن تزول قدما العبد في ذلك الموقف حتى يحاسب عن مدة أجله فيما صرفه بعامَّة، وعمَّا فعل بزمانه وقت شبابه بخاصَّة، فإن فيه أكثر العطاء وأمضاه، وهو تخصيص بعد تعميم، لأن تمكن الإنسان من الزمن في وقت الشباب، أعظم وآكد وأثمر من طرفي العمر حيث ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فيهما كثيرٌ من النَّاس: الصِّحَّةُ، والفَرَاغُ»[2].

قال ابن الخازن[3]: «النِّعمةُ ما يتنعَّم به الإنسان ويستلذه، والغبنُ أن يشتري بأضعاف الثمن، أو يبيع بدون ثمن المثل.

فمن صحَّ بدنه، وتفرغ من الأشغال العائقة، ولم يَسْعَ لصلاح آخرته، فهو كالمغبون في البيع.

والمقصود بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ، بل يصرفونهما في غير مَحَالِّهِمَا، فيصير كل واحد منهما في حقهم وبالاً، ولو أنهم صرفوا كل واحدٍ منهما في محلِّه لكان خيراً لهم، أيَّ خير».

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» ٢٠: ٦٠ ـ ٦١، واللفظ له، والبزار في «مسنده» رقم (٢٤٣٧) من «كشف الأستار»، وهو صحيح بشواهده.

(٢) رواه البخاري في أول كتاب الرِّقَاق رقم (٦٤١٢)، وغيره.

(٣) كما في حاشية «سنن ابن ماجه» ٢: ١٣٩٦.

وأشار ﷺ بقوله: «كثير من النَّاس» إلى أن الذي يوفق لذلك قليل، فالموفق العاقل من عرف كيف يستفيد من فراغه وصحته، ويضعهما في الموضع الذي يحقق له وللبشرية جمعاء السعادة في الدارين، فإن كان كذلك فهو المغْبُوطُ وإلاَّ فإنه هو المغْبُونُ الخاسر، فالصحة يعقبها السَّقَم، والفراغ يعقبه الشغل.

فهما رأسمال الإنسان، فإمَّا أن يحسن استثماره فيربح مع سلامة رأس المال، وإمَّا أن يسيىء استعماله، فيخسر مع ضياع رأس المال، وبالتالي ضياعه هو وخسرانه.

ولذلك يقول الرسول ﷺ:

«اغتنم خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفَراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[1].

إن الصحة والفراغ والمال، هي الباب الذي تلج منه الشهوات المستحكمة، ويتربَّع في فنائها الهوى الجامح، فيأتي على صاحبه، وقد صدق من قال: «من الفراغ تكون الصَّبْوَةُ»[2].

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لقد هاج الفراغُ عليه شُغْلاً ... وأسبابُ البلاء من الفراغ

وكم كان أبو العتاهية موفقاً عندما سأله سليمان بن أبي شيخ بقوله: أي شعر قلته أجود وأعجب إليك؟ قال: قولي:

إنَّ الشَّبابَ والفراغَ والجَدَه[3] ... مَفْسَدَةٌ للعقل أيّ مَفْسَدَهْ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» ٤: ٣٠٦، عن ابن عباس، وصححه ووافقه الذَّهَبِيّ.

(٢) «فيض القدير» ٦: ٢٨٨. والصَّبْوَةُ: الهوى والميل عن طريق الحق.

(٣) أي الغنى.

وقولي أيضاً:

إنَّ الشَّبـاب حُجَّـةُ التَّصـابـي روائـحُ الجَنَّةِ في الشَّبـاب[1]

وقال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[2]:

«إني لأمقتُ الـرجلَ أن أراه فـارغـاً، ليس في شيء من عمـل الـدنيـا، ولا عمل الآخرة».

• • •

(١) ديوان أبـي العتاهيـة ص: ٤٩٥، وهما من أرجـوزته المشهـورة التي هي من بدائعـه كما يقول صـاحب «الأغاني»، ويقـال: إنَّ فيها أربعـة آلاف مثل، انـظر «الديـوان» ص: ٤٩٣ وما بعد.

(٢) رواه عنه هنَّاد بن السَّـرِيّ في كتاب «الـزهد» ٢: ٣٥٧، وذكـره وكيع بن الجـرَّاح في «الزهد» أيضاً ٢: ٦٥٢ بنحوه.

المبحث الثاني

ارتباط قيمة الزَّمَن بالغاية مِنَ الخَلْق

إن إدراك قيمة الزمن في حياة الإنسان، يتوقف ابتداءً على معرفته بالغاية التي من أجلها خَلَقَهُ الله سبحانه، ومدى تحققه بها.

ولا شك أنَّ العاقل يدرك ـ ليس بعد طول نظر ـ، أنه يستحيل أن يكون هذا الكون بقوانينه المحكمة والمتوازنة، وما بثَّ فيه المولى سبحانه من أنواع المخلوقات والأحياء قد أوجد عبثاً، أو لهواً، أو ضرباً من الباطل، دونما غاية أو مقصد.

ويَلْفِت القرآن الكريم الأنظار نحو ذلك، فنقرأ فيه قول الحقِّ سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص/ ٢٧ ـ ٢٨].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان/ ٣٨ ـ ٤٠].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون/ ١١٥ ـ ١١٦].

وقد بين لنا المولى جلَّ شأنه الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، فقال جَلَّ من قائل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ٣٠].

إنه خلقه ليكون خليفةً في الأرض، وسيِّداً لهذا الكون، فسخَّر له سائر مظاهره وموجوداته وصيَّرها في خدمته.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [لقمان/ ٢٠].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل/ ١٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل/ ١٤].

وللفظ التسخير هنا من الإيحاء والوقع في النفس، ما لا يوجد في سواه، ففيه معنى القهر والإذلال والانقياد والتهيئة لما يراد من الانتفاع.

جعله خليفةً وسَخَّرَ له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، ثم أوكل إليه عِمَارة الأرض، وفي ذلك يقول المولى سبحانه:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود/ ٦١].

«أي وهو الذي جعلكم عُمَّارَها وسُكَّانها، فالاستفعال بمعنى الإفعال،

يقال: أعمرته الأرض واستعمرته، إذا جعلته عامرها وفَوَّضت إليه عمارتها»[1].

واسْتُدِلَّ بالآية على أن عِمَارة الأرض واجبة لهذا الطلب، ولذا يقول الإمام الزمخشري[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿واستعمركم فيها﴾ «أي: وأمركم بالعِمَارة».

ويقول العلَّامة الأَلُوسي رحمه الله[3]: «ومعنى كونه ـ أي آدم ـ خليفة: أنه خليفة الله تعالى في أرضه، ـ وكذا كل نبي ـ استخلفهم في عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجةٍ به تعالى، ولكن لقصور المستخلف عليه».

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص/ ٢٦].

«إذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلِّم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله ـ بإذن الله ـ في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه.

وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية.

---

(١) «روح المعاني» ١٢: ٨٨.

(٢) في «الكشَّاف» ٢: ٢٢٣.

(٣) في «روح المعاني» ١: ٢٢٠.

وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض ـ وتحكم الكون كله ـ والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة!

وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان، في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة. وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم»[1].

وقاعدة هذا الاستخلاف، وأساس تلك العِمَارة العبودية لله عز وجل.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات/ ٥٦ ـ ٥٨].

ومن ثَمَّ كان النداء الأول لكل رسول:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف/ ٥٩].

لأن رسالتهم إنما كانت لإبلاغ هذه الغاية والتحقق بها.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل/ ٣٦].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء/ ٢٥].

وهذه العبادة التي من أجلها خلق الله الجنَّ والإنس، والتي ظلمها الكثير والكثير من المسلمين، حيث حَرَّف بعضهم مفهومها، وقَصَرَها البعض الآخر على بعض معانيها، هي كما جاء بها القرآن الكريم والسنَّة المطهرة وكما فهمها خير قرون هذه الأمَّة:

---

(١) في «ظلال القرآن» ١: ٥٦.

تشمل الدين كله، وتشمل الحياة كلها، وتشمل كيان الإنسان كله ظاهره وباطنه[1].

إنها كما يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله[2]: «اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة».

بل إن «كل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة»[3].

وبدون هذا المفهوم الجامع للعبادة لا يمكن للمرء أن يدرك قيمة الزمن وأهميته، وبالتالي أن يغتنمه ويتوجه نحو إعْمَاره كما شاء الله تعالى وأراد.

إن إدراك الإنسان لقيمة الزمن ليس إلاَّ إدراكاً لوجوده وإنسانيته ووظيفته.

وسيلحظ من خلال القواعد التي ستأتي، ذلك الرابط الوثيق بينها وبين خصائص العبادة في الإسلام، والتي نتجت عن ذلك المفهوم الجامع لمعناها المتضمن للأخذ بالأسباب والقائم على مراعاة سنن الله في الكون.

• • •

(١) انظر «العبادة في الإسلام» للدكتور يوسف القرضاوي ص: ٤٩.

(٢) في كتابه «العبودية» ص: ٥.

(٣) المصدر السابق ص: ٢٨.

قَوَاعِدُ فِي قِيمَةِ الزَّمَنِ وَأَوْجُهُ اغْتِنَامِهِ

وهي أربع عشرة قاعدة:

القاعدة الأولى

الزَّمَنُ هو أَجَلُّ وأشرف ما يحصله العقلاء بإجماع العلماء

وذلك لأن الزمن هو العمر الإنساني، وهو الحياة التي تبدأ من لحظة الوضع وتنتهي بساعة الموت.

يقول الإمام ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة رحمه الله[1]: «وقتُ الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم، وهو يمر مرَّ السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاش فيه عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته».

وقد أشار الإمام الرَّبَّاني الحسن البصري رحمه الله من قبل إلى هذا المعنى، فقال[2]: «يا ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضك».

وكأني به رحمه الله عندما اختار الأيام على السنين، يشير إلى قصر

---

(١) في «الجواب الكافي» ص: ١٨٤.

(٢) كما في «حِلْية الأولياء» للأصفهاني ٢: ١٤٨.

العمر، وطول السفر، وبُعْدِ الشُّقة، مما يستدعي أن يكون المرء أَلْصَق بعمره، ضنيناً باللحظات منه فضلاً عن الساعات والأيام.

وكلما ازداد إدراك المرء للغاية التي من أجلها خُلِقَ، ازداد اغتناماً لزمنه، وبالتالي كان أقرب لتلك الغاية وأكثر تحققاً بها.

إن الزمن يساوي عَطَاء الإنسان وحَصَادَ عمره؛ يساوي اليد التي ستحمل كتابَهُ، يُمنى تكون أو يُسْرَى.

ومن ثَمَّ يقول إمَامُنا البَصْرِيُّ:

«أدركتُ أقواماً كُلُّ أحدهم أشحُّ على عمره منه على درهمه»[1].

أشحُّ بعمره: لأنه يعلم أن العمر إن ضاعَ فات ولم يعوَّض، وأنَّ الدِّرهم إنْ ارتحل يوماً حَلَّ في آخر.

أشحُّ بعمره: لأنه أدرك أنَّ الليل والنهار يَعْمَلانِ فيه، فليعمل هو فيهما، مُعَمِّراً مستثمراً.

قال علي بن محمد الكاتب البُسْتي[2]:

إذا ما مضى يومٌ ولم اصطنع يَداً ولم اقتبس عِلْماً فما هو من عمري

والعاقل الموفق من أدرك حقيقة ذلك، فاغتنم عمره في علم نافع يحفظه ويحفظ الأمَّة من نفسها ومن عدوها، ويجعلها أُمَّة يَدُها هي العليا وليست هي السفلى، في جهادٍ مُبَارك: قلماً ولساناً وسِنَاناً، في أمر بمعروف ونهي عن منكر، في تربية لعقول وأفئدة وأحاسيس تنفع الناس وتمكث في الأرض لتؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها.

---

(١) «شرح السنة» للبغوي ١٤: ٢٢٥.

(٢) كما في «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر ١: ٦١.

إنَّ «مَنْ أمضى يَوْمَهُ في غَيْرِ حَقٍّ قضاه، أو فرض أدَّاه، أو مجد أثله، أو حَمْدٍ حَصَّله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عَقَّ يومه وظلم نفسه»[1].

وظلمه هذا يتحسسه أشدّ ما يكون، عند ساعة احتضاره، عندما يراه قد أودى به إلى الخسران المبين، فيتمنى على الله أن يؤخِّره حتى يُصلح ما أفسد، ويتدارك ما فات، وأنَّى له أن يُمْهَل وقد تحتَّم الأجل ونزل الموت في ساحته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون/ ٩ ـ ١١].

خبيرٌ بما كان من تضييعهم لأعمارهم، وإفسادهم لزمانهم، وانشغالهم عن وظيفتهم.

وفي الآيات تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات، والمسارعة للخروج عن عهدة الواجبات، وتحذير عن أن يجيء الأجل والتفريط قائم، فإن تأخير الموت عن وقته ساعتئذ مما لا سبيل إليه، وأنه هاجم لا محالة.

هذا أحد مواقف ظلم الإنسان لنفسه، وثانٍ ليس عنه ببعيد، وذلك عندما يرى نفسه في نار جهنم وقد أحاطت به خطيئته، فينادي مع أقرانه المصفدين بالأغلال:

﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾.

---

(١) فيض القدير ٦: ٢٢٨ مصححاً ما وقع فيه من تصحيف وتحريف.

فيأتي الجواب مصحوباً بالتقريع المُجْهِز:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر/ ٣٧].

لقد كانت أعماركم التي وهبناكم بين أيديكم، تكفي لمن أراد أن يتذكر ويتفكر ويعمل صالحاً!

ولذلك ورد في الحديث الصحيح[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَعْذَرَ الله إلى امرىء أَخَّرَ أَجَلَهُ حتى بَلَّغَهُ ستين سنة».

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمَّة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَعْمَارُ أُمَّتي ما بين ستينَ إلى سبعينَ، وأَقَلُّهُمْ من يجوزُ ذلك»[2].

---

(١) رواه البخاري في الرِّقاق، رقم (٦٤١٩). قال الحافظ ابن حَجَر العسقلاني في «فتح الباري» ١١: ٢٤٠: «والإعذار: إزالة العذر، والمعنى: أنه لم يبق له اعتذار... ونسبة الاعتذار إلى الله مجازية، والمعنى: أن الله لم يترك للعبد سبباً في الاعتذار يتمسك به. والحاصل أنه لا يعاقب إلَّا بعد حجة...

قال ابن بَطَّال: إنما كانت الستون حدّاً لهذا، لأنها قريبة من المعترك، وهي سِنُّ الإنابة والخشوع، وترقب المنية، فهذا إعذار بعد إعذار، لطفاً من الله بعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم، ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلَّا بعد الحجج الواضحة، وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل، ولكنهم أمروا بمجاهدة النفس في ذلك ليتمثلوا ما أمروا به من الطاعة. وينزجروا عمَّا نهوا عنه من المعصية».

(٢) رواه الترمذي في «جامعه» في كتاب الزهد، رقم (٣٥٥٠)، وقال: «حسن غريب».

لقد عاش سلفنا رحمهم الله هذا الهَدْي الجامع، وأخَذَ منهم كل مأخذ، فكانوا من أحرص الناس على عمر، ومن أكثرهم اغتناماً لزمن وأعملهم فيه، فكان الحصادُ: فتوحاً، وعلوماً، ومعارف، ومَدَنِيَّةً، وهَدْياً، ورحمةً، وعدلاً، وتُقَىً، وزَهَادةً، ضمتها أعظم حضارة في تاريخ البشرية وأميزها.

وسأذكر طرفاً يسيراً مما كان عليه علماء هذه الأمَّة وجهابذتها من عظيم محافظتهم على الزمن، ومحاسبتهم لأنفسهم على لحظات العمر، فكان من نِتَاجهم: غزارة وأصالة وجِدَّةً وتنوعاً، ما أثرى الحضارة الإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه الشواهد تمثل عناية علماء هذه الأمَّة البالغة بل المدهشة في إعمار زمنهم وصونهم له وإدراكهم لشرفه، مما كان له عظيم الأثر فيما أبدعوا فيه من نِتَاجهم العلمي.

وقد كان سبب اختياري لها وترجيحها على سائر الشواهد غير اللصيقة بالعلم وأهله، أن العلم:

«هو الحاكم على الممالك والسياسات والأموال والأقلام، فَمُلْكٌ لا يتأيد بعلم لا يقوم، وسيفٌ بلا عِلْم مِخْرَاق لاعب، وقلمٌ بلا علم حركةُ عابث، والعلم مسلَّطٌ حاكم على ذلك كلِّه، ولا يحكم شيء من ذلك على العلم»[1].

فإلى أول هذه الشواهد:

* قال الخطيب البغدادي[2]: «سمعت علي بن عبيد الله بن عبد الغفَّار

---

(١) «مفتاح دار السعادة» للإمام النابغة ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة رحمه الله ١: ٧٩ ــ ٨٠.

(٢) في «تاريخ بغداد» ٢: ١٦٣.

اللغوي، يحكي: أن محمد بن جرير الطبري ـ المتوفى سنة ٣١٠هـ عن ثلاث وثمانين سنة ـ، مكث أربعين سنة يكتب في كُلٍّ يوم منها أربعين ورقة».

أي أنه رحمه الله كتب ما يقارب (٥٨٤٠٠٠) أربعة وثمانين وخمسمائة ألف ورقة!!

وابتداءً يقف المرء حائراً مشدوهاً أمام هذا الرقم الذي لا يُعْرَفُ لِعَالِمٍ في تاريخ البشرية، بيد أنه إذا عُلم ما كان عليه هذا الإمام الجليل من هِمَّة عالية وعزيمةٍ ماضية، وحرصٍ على لحظات العمر حتى في ساعة الاحتضار، وإدراكٍ لشرف الرسالة التي يحمل، مع فسحة في العمر والبركة فيه لما كان عليه من الإخلاص وصدق النية، خفَّت حيرته وأصبح أقرب إلى فهم حقيقة هذه الغزارة في الإنتاج العلمي.

يقول الأستاذ محمد كرد علي في ترجمة ابن جرير الطبري[1]: «وما أثر عنه أنه أضاع دقيقة من حياته في غير الإفادة والاستفادة. روى المُعَافَىٰ بن زكريا عن بعض الثقات، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فَذُكِرَ له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى مَحْبَرَةً وصحيفة فكتبه[2]، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى الممات».

ومصنفات إمامنا الطبري رحمه الله في الذروة: جِدَّةً ومنهجاً واتساعاً وعمقاً ونضجاً، مع اختلاف الفنون التي تناولها على كثرتها، حتى آلت إليه

---

(١) في كتابه «كنوز الأجداد» ص: ١٢٣.

(٢) في الأصل: «فكتبها».

إمامة المؤرخين والمفسرين، إلى جانب كونه صاحب مذهب فقهي يختص به.

ولإدراك المنزلة التي نزلتها مصنفاته، أذكر ما قاله: أبو حامد أحمد بن أبي طاهر الإسفرائيني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً»[1].

وتفسيره المشار إليه آنفاً، والمطبوع في ثلاثين جزءاً، على ضخامته ونفاسته وريادته، أتى على غير ما كان يؤمل سَعَةً.

يروي الخطيب البغدادي[2]: «أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قَدْره؟ فقال: ثلاثون ألفَ ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه! فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة.

ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قَدْره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه مثل ذلك. فقال: إنَّا لله ماتت الهمم!». ثم أملاه على نحو قدر التفسير.

* ويذكر الحافظ الذَّهَبِيُّ في ترجمة أبي حاتم الرَّازي[3]: ـ محمد بن إدريس، المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ـ، أن أبا حاتم قال:

«قال لي أبو زُرْعة ـ يعني الرَّازي ـ: ما رأيت أحرصَ على طلب الحديث منك. فقلت له: إن عبد الرحمن ابني لحريص، فقال: من أشبه أباه فما ظلم. قال الرَّمَّام ـ وهو أحمد بن علي، أحد رجال إسناد الخبر ـ: فسألت عبد الرحمن عن اتفاق كثرة السماع له، وسؤالاته لأبيه، فقال: ربما

---

(١) تاريخ بغداد: ٢: ١٦٣.

(٢) في «تاريخ بغداد» ٢: ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) في «سِيَر أعلام النبلاء» ١٣: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

كـان يأكـلُ وأقرأ عليـه، ويمشي وأقرأ عليـه، ويَدْخُـل الخلاء[1] وأقـرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه».

فكانت ثمرة تلك المحـافظة النـادرة على الزمن، والحـرص على طلب العلم، نِتَاجاً علمياً كبيراً، منه كتاب «الجـرح والتعديـل» في تسعة مجلدات، وهو من الكتب النفيسة الحـافلة الرائـدة في هذا العلم، وكتـاب «التفسير» في عدة مجلدات، وكتاب «المسند» في ألف جزء[2]!

* وهـذا هو الإمـام سُلَيم بن أيوب الـرَّازي، أحد كبـار أئمة المـذهب الشافعي ـ المتوفى سنـة ٤٤٧هـ ـ، يحاسب نفسـه على الأنفاس أن تضيـع دون إفادة أو استفادة.

فيذكر عنه الحافظ ابن عسـاكر في «تبيين كـذب المفتري»[3] ممـا وجده بخط أبـي الفرج غيث بن علي بن عبد السـلام التَّنُوخي الصُّـوْري ـ نسبة إلى مدينة صُوْر ـ ما نصه:

«وحُدِّثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفـاس، لا يدع وقتـاً يمضي عليـه بغير فـائدة، إمـا ينسخ، أو يـدرِّس، أو يقرأ، وينسـخ شيئاً كثيـراً. ولقد حدَّثني عنه شيخنا أبو الفرج الإِسْفَرَايني ـ وهو أحد تلامذته ـ، أنه نزل يومـاً إلى داره ورجع، فقال: قد قرأت جزءاً في طريقي.

قـال وحدَّثني المؤمَّـل بن الحسن أنـه رأى سُلَيْمـاً حَفِيَ[4] عليـه القلم،

---

(١) أي في طريقه إليه.

(٢) والجزء على مصطلح المتقدمين، يساوي (٢٠) ورقة، كما في «سِيَـر أعلام النبـلاء» ٢٠: ٥٥٨ ـ ٥٥٩.

(٣) ص: ٢٦٣.

(٤) أي رَقَّ ولم يعد صالحاً للكتابة.

فإلى أن قَطَّهُ[1] جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم، لئلا يمضي عليه زمانٌ وهو فارغ، أو كما قال».

* وبلغ الإمام أبو الوفاء عليّ بن عَقِيل الحنبلي البغدادي ـ المتوفى سنة ٥١٣هـ، الذي يقول فيه الإمام ابن تيمية[2]: «إنه من أذكياء العالم»، في محافظته على الزمن مَبْلَغاً أثمر أكبرَ كتاب عرف في الدنيا لِعَالِمٍ، هو كتاب «الفنون» في ثمانمائة مجلدة.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في ترجمته[3]: «وأكبر تصانيفه كتاب «الفنون»، وهو كتاب كبير جداً، فيه فوائد كثيرة جليلة في الوعظ، والتفسير، والفقه، والأصلين[4]، والنحو، واللغة، والشعر، والتاريخ، والحكايات، وفيه مناظراته ومجالسه التي وقعت له، وخواطره، ونتائج فكره قيدها فيه».

ويقول ابن الجَوْزِي[5]: «وكان له الخاطر العاطر والبحث عن الغوامض والدقائق، وجعل كتابه المسمى بـ «الفنون» مناطاً[6] لخواطره وواقعاته. ومن تأمل واقعاته فيه عرف غور الرجل».

وقال سِبْط ابن الجَوْزِي[7]: «واختصر منه جَدِّي عشر مجلدات فرقها في تصانيفه، وقد طالعت منه في بغداد في وقف المأمونية نحواً من سبعين، وفيه حكايات ومناظرات، وغرائب وعجائب وأشعار.

---

(١) القَطُّ: قطع الشيء عَرْضاً، ومنه قَطُّ القلم، والمِقَطَّةُ: ما يُقَطُّ عليه القلم.

(٢) في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» ٨: ٦٠.

(٣) في «ذيل طبقات الحنابلة» ١: ١٨٨.

(٤) أي أصول الدين وأصول الفقه.

(٥) في «المنتظم» ٩: ٢١٤.

(٦) في الأصل «مناظراً» وهو تصحيف، والتصويب من «ذيل طبقات الحنابلة» ١: ١٧٦.

(٧) في «مرآة الزمان» ٨: ١٥١ كما في حاشية «سِيَر أعلام النبلاء» ١٩: ٤٤٥.

وقال عبد الرزاق الرَّسْعَني في «تفسيره» قال لي أبو البقاء اللغوي: سمعت الشيخ أبا حكيم النَّهْرَوانِيَّ يقول: وقفت على السِّفْر الرابع بعد الثلاثمائة من كتاب الفنون».

وقال الحافظ الذَّهَبِيُّ[1]: «وعَلَّقَ كتاب «الفنون» وهو أزيد من أربعمائة مجلد، حشد فيه كُلَّ ما كان يجري له مع الفضلاء والتلامذة، وما يَسْنَحُ له من الدقائق والغوامض وما يسمعُهُ من العجائب والحوادث».

وقال أيضاً في «تاريخه»[2]: «لم يصنَّف في الدنيا أكبرُ من هذا الكتاب، حدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمائة. قلت ـ القائل ابن رجب ـ: وأخبرني أبو حفص عمر بن علي القَزْويني ببغداد قال: سمعت بعض مشايخنا يقول: هو ثمانمائة مجلدة».

فكيف كان له ذلك؟!

إنَّا ندع الإمام ابن عَقيل يُحَدِّثُنا عن نفسه، فيقول[3]:

«إني لا يحلُّ لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلاَّ وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين».

ويقول[4]: «وأنا أقصِّرُ بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سَفَّ

---

(١) في «سِيَر أعلام النبلاء» ١٩: ٤٤٥.

(٢) كما في «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ١: ١٨٨، وقد نقل ابن رجب نصوصاً كثيرة من كتاب «الفنون» في ترجمة أبي الوفاء ابن عقيل، فانظرها إن شئت.

(٣) كما في «المنتظم» لابن الجوزي ٩: ٢١٤.

(٤) كما في «ذيل طبقات الحنابلة» ١: ١٧٧.

الكعك وتحسّيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفراً على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها».

* وهذا هو الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجَوْزي ـ المتوفى سنة (٥٩٧)هـ ـ، أحد أعلام الأئمة الذين يقتدى بهم في حرصهم على الزمن وتَحَيُّشِهِم عن كل ما يضيعه، مما أثمر هذا الذي يقوله سِبْطه أبو المظفَّر عنه[1]:

«وسمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعيّ هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يديَّ مائة ألف، وأسلم على يديَّ عشرون ألف يهودي ونصراني».

ويقول هو عن نفسه رحمه الله[2]: «وإني أخبر عن حالي، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره، فكأني وقعت على كنز. ولقد نظرت في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثَبَتِ كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب ـ الأنماطي ـ، وابن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشاب، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه. ولو قلت: إني قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد في الطلب. فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر هممهم، وحفظهم، وعباداتهم، وغرائب علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت استزري ما الناس فيه، واحتقر همم الطلاب، ولله الحمد».

---

(١) كما في «ذيل طبقات الحنابلة» ١: ٤١٠، ط القاهرة ١٩٥٢م.

(٢) في كتابه «صيد الخاطر» ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

فإذا كان قدر ما قرأ وهو في الطلب (عشرون ألف) مجلدة، واحتسبنا أن صفحات المجلد الواحد في المتوسط (٣٠٠) صفحة، كان مقدار ما قرأ (٦,٠٠٠,٠٠٠) ستة ملايين صفحة!!

وإذا كان ما كتب بأصبعيه (ألفي) مجلدة، كان مقدار ما كتب (٦٠٠,٠٠٠) ستمائة ألف صفحة!!

هذا ما قرأ ونسخ، فما هو مقدار ما كتب وصنَّف؟

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في «أجوبته المِصْرية»[١]: «كان الشيخ أبو الفرج مفتياً كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك له ما لم أره».

ويقول الحافظ الذَّهَبِيُّ[٢]:

«وما علمت أحداً من العلماء صنَّف ما صَنَّف هذا الرجل».

حيث لم يدع فناً من الفنون إلاَّ وصنف فيه، منها ما هو عشرون مجلداً، ومنها ما هو في رسالة صغيرة[٣].

فكيف اجتمع له هذا كلُّه!

يقول الموفق عبد اللطيف ـ فيما نقله عنه الذَّهَبِيُّ[٤] ـ إنه كان «لا يُضيِّعُ من زمانه شيئاً».

---

(١) كما في «ذيل طبقات الحنابلة» ١ : ٤١٥ ط القاهرة ١٩٥٢.

(٢) في «طبقات الحفاظ» ٤ : ١٣٤٤.

(٣) أقول: مصنفات الإمام ابن الجَوْزي رحمه الله ـ على أهميتها ـ تتفاوت قيمة لاختلاف تمكنه في الفنون التي صنَّف فيها، ولكونه لا يعود إلى ما ألَّف مراجعاً منقحاً. وانظر في ذلك: «سِيَر أعلام النبلاء» للذَّهَبِيِّ ٢١ : ٣٧٨ و ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٤) في «سِيَر أعلام النبلاء» ٢١ : ٣٧٧.

ويقول ابن الجَوْزي نفسه رحمه الله[1]: «لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون[2] الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني، ويتخلله غيبة.

وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوَّق إليه، واستوحش من الوحدة، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه[3] بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء[4] جهدي، فإذا غُلبت قصَّرت في الكلام لأتعجل الفراق.

ثم أعددت أعمالاً لا تمنع[5] من المحادثة لأوقات لقائهم لئلاً يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من المستعَدِّ للقائهم قطع الكاغد[6]، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي».

---

(١) في «صيد الخواطر» ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) أو لعلها: «يطيلون».

(٣) في الأصل: «انتهاؤه».

(٤) في الأصل: «باللقاء».

(٥) في الأصل: «تمنع».

(٦) وهو الورق.

* وعلى سنن من سبق، مشى شيخ الطِّب في زمانه: ابن النَّفِيس[1] رحمه الله. والذي يقول عنه الإمام التاج السُّبْكي[2]: «وأما الطِّب فلم يكن على وجه الأرض مثله، قيل: ولا جاءَ بعد ابن سينا مثله، قالوا: وكان في العلاج أعظمَ من ابن سينا».

هذا الطبيب الرائد صنَّف كتاباً في الطِّب سمَّاه «الشامل» يقول فيه التاج السُّبْكي[3]: «قيل: لو تَمَّ لكان ثلاثمائة مجلَّدة، تَمَّ منه ثمانون مجلّدة، وكان فيما يُذْكَرُ، يُمْلي تصانيفه من ذهنه».

فكيف تم له ذلك؟

كان رحمه الله «إذا أراد التصنيف، توضع له الأقلام مبريةً، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السَّيل إذا انحدر، فإذا كَلَّ القلم وحَفِي، رمى به وتناول غيره، لئلا يضيع عليه الزمان في بري القلم...

ودخل الشيخ علاء الدين ـ يعني ابن النَّفِيس ـ مرَّة إلى الحمَّام التي في باب الزهومة، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مَسْلَخ الحمام[4]،

---

(١) وهو: علاء الدين علي بن أبي الحزم القَرْشيّ ـ نسبه إلى بلدة (قَرْش) في ما وراء النهر ـ ولد في دمشق، وتوفي في مصر سنة (٦٨٧هـ) عن نحو الثمانين من عمره، وهو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى، وأول من أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية. انظر «الأعلام» ٤: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) في «طبقات الشافعية» ٨: ٣٠٥، ط عيسى الحلبي ١٩٦٤م.

(٣) المصدر السابق نفس الموضع.

(٤) وهو موضع نزع الثياب.

واستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النَّبْض إلى أن أنهاها، ثم عادَ ودخل الحمَّام وكمَّل تغسيله»[1].

وكان ابن النَّفِيس رحمه الله إلى جانب كونه طبيباً مبرزاً، من المشتغلين بعلمي الفقه وأصوله، وله مصنَّفات فيهما، بل كان مشاركاً في جملة من الفنون.

* ولماذا نذهب بعيداً، ومن بين الأحياء من علمائنا مَنْ بلغ مبلغاً عظيماً في المحافظة على الزمن، فبارك الله في عمره ونفع به أجيالاً في متفرق من المعمورة، وهو العلَّامة الأديب الأستاذ عليّ الطنطاوي حفظه المولى تعالى.

ولندعه يتحدث عن ثمرة محافظته للوقت فيقول[2]:

«لو أحصيت معدَّل الساعات التي كنت أطالع فيها لزادت على عشر في اليوم، لأنني منذ الصغر شبه معتزل، بعيد عن المجتمع[3]، فلو جعلت لكل ساعة عشرين صفحة، أقرأ من الكتب الدسمة نصفها، ومن الكتب السهلة نصفها، لكان لي في كل يوم مائتا صفحة. أتنازل عن نصفها احتياطاً وهرباً من المبالغة وخوفاً من الكذب ــ وإن كنت لم أكذب ولم أقل إلَّا حقاً ــ فهذه مائة صفحة في اليوم.

فاحسبوا كم صفحة قرأت من يوم تعلمت النظر في الكتب، وامتدت

---

(١) «روضات الجنات» للخوانساري ٥: ٩٠ ــ ٩٣، كما في كتاب أستاذنا العلّامة عبد الفتاح أبو غدة «قيمة الزمن عند العلماء» ص ٣٧ ــ ٣٨، وفيه أمثلة كثيرة لحال علمائنا في مراعاتهم لأوقاتهم وحرصهم عليها، فانظرها فإن فيها الخير الكثير.

(٢) في كتابه «ذكريات علي الطنطاوي» ٤: ٧٧.

(٣) يريد ببعده هذا، بُعْدَ الفضول، لا بعد عدم الاهتمام بأمور المسلمين ومصالحهم.

يدي إليها. سبعون سنة في كل سنة اثنا عشر شهراً، في كل شهر ثلاثون يوماً في كل يوم مائة صفحة، فإن هالكم الرقم فاحسموا منه نصفه فكم يبقى.

كنت ولا أزال أقرأ في كل علم: في التفسير وفي الحديث وفي الفقه وفي التاريخ وفي الأدب: الأدب العربي والأدب الفرنسي، وفي العلوم على تنوعها وتعددها».

ويقول أيضاً[1]: «بدأت أقرأ سنة ١٣٣٥ ونحن اليوم في سنة ١٤٠٥، وأنا أقرأ أكثر ساعات ليلي ونهاري، فلو قدرت لكل يوم مئة صفحة، وأنا في الحقيقة أقرأ أضعافها، لكان مجموع ما قرأت مليونين ونصفاً من الصفحات!».

ويضيف ـ متَّع الله به ـ قائلاً: «وكتبتُ ما لم يكتب أكثر منه ممن أعرف إلاَّ قليل كالأمير شكيب أرسلان والأستاذ العقاد وأمثالهما، وإن كان أمثالهما قلة من أصحاب القلم الفياض.

والذي نشر مما كتبت يزيد على ثلاثة عشر ألف صفحة، وما ضاع مني مثله أو أكثر منه».

ورحم الله الوزير الفقيه يحيى بن محمد بن هُبيرة ـ شيخ ابن الجَوْزي ـ، إذ يقول[2]:

والوقتُ أنفسُ ما عُنِيتَ بحفظه ... وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ

• • •

(١) في حاشية المصدر السابق ٣: ٢١١.

(٢) كما في ترجمته في «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ١: ٢٨١. ط القاهرة ١٩٥٢م.

القاعدة الثانية

مِنْ شرف الزَّمَان أن الإنسان العاقل يحرص على اغتنامه إلى حال النزع والذَّمَاء[1]

روى الإمام أحمد في «مسنده»[2] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنْ قامت الساعةُ وبيد أحدِكُم فسيلةٌ[3]، فإن استطاع أن لا يقومَ[4] حتى يَغْرِسْها فليفعل».

إنه إدراك لشرف الزمان وتقدير للعطاء ذاته، و«إشعار بأن الإنسان المسلم لا يدع عمارة الأرض، والإنتاج للحياة ولا يكف عن العمل والعطاء ما دامت الحياة قائمة، وأنه لا يجوز أن يعيش بغير عمل لحظة من الدهر وإن كان إسرافيل قد أمسك بالصور لينفخ فيه، ويتهدم بعدها سُرَادق الحياة كلها.

إن غرس الفسيلة في مثل هذا الموقف يمثل القيام بحق الوقت الحاضر، حق اللحظة الواقعة، بغض النظر عن الماضي أو المستقبل»[5].

---

(١) أي النفس الأخير من الحياة.

(٢) ٣: ١٩١، وإسناده صحيح.

(٣) الفسيلة: النخلة الصغيرة.

(٤) هكذا في «المسند»: «لا يقوم». قال المُنَاوي في «فيض القدير» (٣/ ٣٠): أي لا يقوم من محلِّه الذي هو جالس فيه. وورد اللفظ عند الإمام البخاري في «الأدب المفرد» ص ١٦٨ رقم (٤٧٩): «لا تقوم». يعني الساعة.

(٥) «الوقت في حياة المسلم» للدكتور يوسف القرضاوي ص: ٥٥.

هذا الإشعار تمكَّن من صحابة رسول الله ﷺ، فكانوا قدوة في إدراك شرف الزمان: عمارة للأرض وتحققاً في استخلاف. فعن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: «سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غداً، فقال له عمر: أَعزمُ عليك لتغرسنَّها، فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي»[1].

أين هذا الموقف من سيدنا عمر لإدراكه للغاية التي من أجلها كان خَلْقُ الإنسان، مما كان من كسرى فارس فيما يذكره العلَّامة المُناوي[2] حيث يقول: «إن كسرى خرج يوماً يتصيد فوجد شيخاً كبيراً يغرس شجر الزيتون فوقف عليه، وقال له: يا هذا أنت شيخ هرم، والزيتون لا يثمر إلَّا بعد ثلاثين سنة فلم تغرسه؟!

فقال: أيها الملك: زرع لنا من قبلنا فأكلنا، فنحن نزرع لمن بعدنا فيأكل»[3].

لقد رشحت تلك الأصول السامقة في هذا الحديث الشريف الجامع وأمثاله إلى أجيال المسلمين بَعْدُ، فكانوا أهل إعمارٍ لزمنهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياتهم، وهذا بعض ما أثر عنهم.

* قال القاضي إبراهيم بن الجرَّاح الكوفي تلميذ الإمام أبي يوسف القاضي ـ يعقوب بن إبراهيم الأنصاري المتوفى سنة ١٨٢هـ، والذي كان يقال له: قاضي قضاة الدنيا ـ:

«مرض أبو يوسف، فأتيته أعوده، فوجدته مغمىً عليه، فلما أفاق قال

---

(١) رواه ابن جرير الطبري كما في «الجامع الكبير» للسيوطي ١: ١٢٧٤ ـ مخطوط ـ مصورة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) في «فيض القدير» ٣: ٣١.

(٣) انظر بقية الخبر في المصدر السابق، ففيه طرافة.

لي: يا إبراهيم، ما تقول في مسألة؟ قلتُ: في مثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعلّه ينجو به ناج؟.

ثم قال: يا إبراهيمُ، أيما أفضل في رَمْي الجِمار ـ أي في مناسك الحج ـ أن يرميها ماشياً أو راكباً؟ قلت: راكباً، قال: أخطأتَ، قلتُ: ماشياً، قال: أخطأتَ، قلت: قل فيها، يرضى الله عنك.

قال: أمَّا ما كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشياً، وأما ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكباً.

ثم قمت من عنده، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات، رحمة الله عليه»[1].

* وتقدم أن الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله وهو على فراش الموت سمع دعاءً عن جعفر بن محمد، فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى الممات.

* وقال: «الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى الوَلْوَالِجِيّ، قال: دخلت على أبي الريحان ـ البَيْروني[2] ـ وهو يجود بنفسِه، قد حَشْرَجَ نَفَسُهُ،

---

(١) «قيمة الزمن عند العلماء» ص ١٥. والخبر في «الجواهر المضية» لأبي محمد القرشي ١: ٧٦ بأخصر مما هنا.

(٢) واسمه: (محمد بن أحمد الخُوَارِزْمي) توفي سنة ٤٤٠ للهجرة، وهو أحد الأفذاذ في علوم الفلك والرياضيات والفيزياء، يقول فيه المستشرق الأميركي (أربوبول) ـ كما في كتاب «نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات» للدكتور علي عبد الله الدفاع ص: ١٥٩ ـ : «يجب أن يكون لاسم البيروني مكانه الرفيع في أية قائمة لأكابر العلماء. ومن المستحيل أن يكتمل أي بحث للرياضيات أو الفلك أو الجغرافيا أو علم الإنسان أو المعادن، دون الإقرار بمساهمته العظيمة في كل من تلك العلوم».

وضاق به صدره، فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوماً: حسابَ الجدَّات الفاسدة[1]؟ فقلت له: إشفاقاً عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا أودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيراً من أن أُخلِّيها وأنا جاهل بها. فأعدت ذلك عليه، وحفظ، وعلمني ما وعد، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصُّراخ»[2].

* ويذكر الحافظ الذَّهَبِيُّ في «طبقات الحفاظ»[3] في ترجمة (أبي الفرج ابن الجوزي) ما نصه: «وقد قرأ بواسط وهو ابن ثمانين سنة بالعشر ــ أي بالقراءات القرآنية العشرة ــ على ابن الباقلاني، وتلا معه ولده يوسف، نقل ذلك ابن نقطة عن القاضي محمد بن أحمد بن الحسن».

* وعن نُعَيْم بن حمَّاد قال: قيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى الممات إن شاء الله[4].

* وعن ابن معاذ، قال: سألت أبا عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دام تحسن به الحياة[5].

• • •

(١) الجدَّة الفاسدة في علم الفرائض، هي التي تكون من قِبَل الأم، وهو اصطلاح لهم.
(٢) معجم الأدباء ١٧: ١٨٢.
(٣) ٤: ١٣٤٦.
(٤) و (٥) جامع بيان العلم ١: ٩٦.

القاعدة الثالثة

الاشتغال بالنَّدَمِ على الوقت الفائت تضييعٌ للوقت الحاضر

يقول الإمام القدوة الحسن البَصْرِيُّ ـ وهو الذي كلامه يشبه كلام الأنبياء[1] ـ : «ما من يوم ينشق فجره، إلَّا ويُنَادىٰ: يا ابن آدم، أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مِنِّي، فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة».

فالزمن وَحِيُّ التقضِّي[2]، والاشتغال بالندم على ما فات تفويت آخر.

يقول الإمام الرَّباني أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهَرَوي الحنبلي ـ المتوفى سنة ٤٨١ هـ ـ في «منازل السائرين»[3] عند كلامه على الغَيْرَة وأصحابها وأنواعها:

«الغيرة على وقت فات، وهي غيرة قاتلة، فإن الوقت وحيُّ التقضِّي، أبيُّ الجانب، بطيُّ الرجوع».

ويشرح الإمام ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة ذلك فيقول:

---

(١) قال أبو نُعَيْم في «الحِلْية» ٢: ١٤٧: «وكان ـ يعني الحسن ـ إذا ذُكر عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين قال: ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء». وفيه عن الأعمش أنه قال: «ما زال الحسن البصري يعي الحكمة حتى نطق بها».

(٢) أي سريع الانقضاء.

(٣) ٣: ٤٩.

«والوقت عند العابد: هو وقت العبادة. . . والوقت: أعز شيء عليه، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة، لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه، كما في «المسند»[1] مرفوعاً: «من أفطر يوماً من رمضان متعمداً من غير عذر، لم يَقْضِه عنه صيام الدهر، وإن صامه».

وقوله: «وهي غيرة قاتلة». يعني: مضرة ضرراً شديداً بيناً يشبه القتل، لأن حسرة الفوت قاتلة، ولا سيما إذا علم المتحسِّر: أنه لا سبيل له إلى الاستدراك.

وأيضاً: فالغيرة على التفويت تفويت آخر، كما يقال: الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييع للوقت الحاضر، ولذلك يقال:

الوقت كالسيف، إن لم تقطعهُ، وإلاَّ قطعك. .

فالوقت منقضٍ بذاته، منصرم بنفسه، فمن غَفَل عن نفسه تصرَّمت أوقاته، وعَظُمَ فواته، واشتدت حسراته، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع! وطلب الرُّجْعَىٰ فحيل بينه وبين الاسترجاع، وطلب تناول الفائت، وكيف يُرَدُّ الأمس في اليوم الجديد؟

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾. [سبأ/ ٥٢].

ومنع مما يحبه ويرتضيه، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

---

(١) للإمام أحمد ٢: ٤٧ بنحوه. ورواه البخاري تعليقاً بصيغة التمريض، ووصله أصحاب السنن الأربعة، وصححه ابن خزيمة، كلهم من حديث أبي هريرة، وهو حديث ضعيف معل بالاضطراب وبجهالة أحد رواته. انظر «فتح الباري» ٤: ١٦١، وقف فيه على أقوال العلماء في تفسيره.

فيا حسرات، ما إلى ردّ مثلها سبيل، ولو ردّت لهان التحسر
هي الشهوات اللاء كانت تحولت إلى حسرات حين عزّ التصبر
فلو أنها رُدّت بصبر وقوة تحولن لذّات، وذو اللب يبصر

والمقصود: أن الواردات سريعة الزوال، تمر أسرع من السحاب، وينقضي الوقت بما فيه، فلا يعود عليه منه إلاّ أثره وحُكْمُه، فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك، فإنه عائد عليك لا محالة، لهذا يقال للسعداء:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾. [الحاقة/ ٢٤].

ويقال للأشقياء في النار:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾. [غافر/ ٧٥].

فما من جَوادٍ إلاّ وله كبوة، شأن النفس البشرية، والجبلَّة الإنسانية، لتعرف قَدْرها، وتروم وصلها بما يرضي المولى سبحانه ويقرِّب إليه، فالاعتبار عند الكبوة ليس اعتبار العاجز الذي ليس له من اعتباره إلاّ الشكوى والتحسر مع تفويت حقِّ الوقت الحاضر، وليس اعتبار القاصر الذي يقصر به اعتباره بالعودة إلى ما كان، إنما هو اعتبار الموفق البصير الذي يمعن في السبب والمحل ثم يعمل على إصلاحه وتقويمه، ثم يأخذ بكل ما يجعله أقعد وأرسخ وأمضى.

وما أبلغ قول الشاعر إذ يقول:

وما المرء إلاّ راكبٌ ظهر عمره على سفر يفنيه بالليوم والشهر
يبيت ويضحي كل يوم وليلة بعيداً عن الدنيا قريباً من القبر

• • •

القاعدة الرابعة
التسويف عجز وكسل

ما أكثر الذين يأخذون من التسويف شعاراً لهم، يمكنونه من قلوبهم، حتى تقطَّعت آمال وانقطعت آجال.

إنَّ أُمَّة تريد أن تنهض في غدها، لا بد أن تعمل ليومها كأحسن ما يكون العمل: نقاءً وانتقاءً ومضاءً.

وما أعظم وصية ذلك الرجل من عبد القيس لما قيل له: أَوص، فقال: «احذروا سَوْفَ»[1].

فإن يوم العاجزين غَدٌ، وصاحب الهِمَّة لا يعرف يوم العاجزين، لأن الحقوق مرتبطة بزمانها، والواجبات أكثر من الأوقات، والتسويف تفويت لحق لزمه، وتضييع لواجب غده.

وما أجمع قول الإمام الحسن البَصْري:

«إياك والتسويف، فإنك بيومك، ولست بغدك، قال: فإن يكن غد لك، فَكِسْ[2] فيه، كما كِسْتَ في اليوم، وإلاَّ يكن الغد لك، لم تندم على ما فرطت في اليوم»[3].

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي ص ١١٤.

(٢) من الكياسة، بمعنى العقل والفَطَانة. أي اعمل عملاً تكون به كَيِّساً.

(٣) رواه عنه هنَّاد بن السَّرِيِّ في كتاب «الزهد» ١: ٢٨٩.

وَمَنْ ذا الذي يضمن غده؟ وإن كان له غد، أيأمن معوِّقات نوازله!

يقول الإمام الغزالي رحمه الله[1]:

«اعلم أن من له أخوان غائبان، وينتظر قدوم أحدهما في غدٍ، قدوم الآخر بعد شهر أو سنة، فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة كما يستعد للذي ينتظر قدومه غداً، فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار، فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل بالمدَّة ونسي ما وراء المدَّة، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً فإنه يرى لنفسه متسعاً في تلك السنة فيؤخر العمل».

كما قال ﷺ:

«بادروا بالأعمال سَبْعاً:

هل تنتظرون إلاَّ فقراً مُنْسِياً،

أو غِنىً مُطْغِياً،

أو مرضاً مُفْسِداً،

أو هَرَماً مُفَنِّدَاً[2]،

أو مَوْتاً مُجْهِزَاً[3]،

أو الدَّجَّالَ؟ فَشرُّ غائبٍ يُنْتَظَرُ،

أو السَّاعَةَ؟ فالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وأمرُّ»[4]

---

(١) في كتاب «إحياء علوم الدين» ٤: ٣٩١.

(٢) الفَنَدُ: ضعف العقل والفهم والتخليط في الكلام من الهرم.

(٣) مُجْهِزاً: أي سريعاً عاجلاً.

(٤) رواه الترمذي في «سننه» في كتاب الزهد، باب ما جاء في المبادرة بالعمل، عن أبي هريرة، رقم (٢٣٠٦)، وقال: «حسن غريب».

فـ «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، ومن أدْلَج بلغ المنزلَ، ألا إنَّ سِلْعَةَ الله غاليةٌ، ألا إنَّ سلعة الله الجنَّةُ»[1].

ولذلك يقول الرسول ﷺ:

«اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هَرَمِكَ، وصحتك قبل سَقَمك، وغناكَ قبل فقرك، وفراغَكَ قبل شُغْلِك، وحياتك قبل موتك»[2].

قال المنذر: سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه: وَيْحَكِ بادري قبل أن يأتيك الأمر، ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر، حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يراني[3].

واجتهد أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قبل موته اجتهاداً شديداً، فقيل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق، فقال: إنَّ الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك. قال فلم يزل على ذلك حتى مات»[4].

= أقول: في سنده «مُحْرِز بن هارون ـ وسمَّاه بعضهم (محرّر) على وزن محمّد ـ) قال الحافظ ابن حَجَر عنه في «التقريب»: ٢: ٢٣١: «متروك». وقال الحافظ الذَّهَبِيُّ في «الكاشف» ٣: ١٠٨: «ضعَّفوه».

(١) رواه الترمذي في «سننه» في صفة القيامة، عن أبي هريرة، رقم (٢٤٥٠) وقال: «حسن غريب». أقول: في سنده: (أبو فَرْوَة يزيد بن سِنان التميمي)، قال الحافظ ابن حَجَر عنه في «التقريب» ٢: ٣٦٦: «ضعيف». وقال الحافظ الذَّهَبِيُّ في «المغني» ٢: ٧٥٠: «مشهور، ضعَّفه أحمد وابن المَدِيني».

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» ٤: ٣٠٦ عن ابن عبَّاس وصححه، ووافقه الذَّهَبِيُّ.

(٣) «إحياء علوم الدين» ٤: ٣٩٢.

(٤) المصدر السابق ٤: ٣٩٢.

وروى الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه «اقتضاء العلم العمل»[1] عن يوسف بن أسباط أنه قال: كتب إلي محمد بن سَمُرَة السائح بهذه الرسالة: «أي أخي، إيَّاك وتأميرَ التَّسويف على نَفْسِكَ وإمكانه من قلبك، فإنه محلُّ الكَلَالِ وموئلُ التلف، وبه تُقْطَعُ الآمال، وفيه تنقطع الآجال، فإنك إن فعلت ذلك أَدَلْتَهُ من عزمك وهَوَاكَ عليه فعلا واسترجعا من بدنك من السآمة ما قد وَلَّى عنَّك فعند مراجعته إياك لا تنتفعُ نَفْسُكَ من بدنك بنافعةٍ.

وبادر يا أخي فإنَّك مُبَادَرٌ بِكَ، وأسرع فإنَّك مَسْرُوعٌ بِكَ، وجدَّ فإنَّ الأمر جدٌّ، وَتَيَقَّظْ من رَقْدَتِكَ، وانتبه من غفلتك، وتذكَّر ما أسلفت وقصَّرت، وفرَّطت وجَنَيْتَ وعَمِلْتَ، فإنَّه مُثْبَتٌ مُحْصىٰ، فكأنك بالأمر قد بَغَتَكَ، فاغتبطت بما قدَّمت أو نَدِمْتَ على ما فرَّطتَ». انتهى.

قال الإمام المفسِّر الضحَّاك بن مُزَاحِم: «اعْمَلْ قبل أن لا تستطيع أن تعمل، فأنا أبغي أن أعمل اليوم فلا أستطيع»[2].

ومن قبل قال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اعمل كلَّ يوم بما فيه تَرْشُد»[3].

وقال عبد الله بن المعتز: «تناول الفُرْصة الممكنة، ولا تنتظر غداً، فمن لِغَدٍ مِنْ حَادِثٍ بكفيل»[4].

ومن أمثال العرب السائرة: «العجز وطيء».

قال الجاحظ في تفسيره: «أي لا تكره صعوبة الحزم وتختار وطأة العجز».

---

(١) ص ١١٤.

(٢) «اقتضاء العلم العمل» ص ١١٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٩

(٤) المصدر السابق ص ١٠٨.

ومن أمثالهم المشهورة أيضاً: «نكح العجز التواني فولدت بينهما الندامة».

وقال حكيم لولده: «إياك والعجز والتواني في الأمور فتقذفك الرجال خلف أعقابها».

وقال حكيم العرب في الجاهلية أَكْثَم بن صَيْفيّ: «لا أحبُّ أن أُكْفَىٰ أمري كلّه. قيل: ولم ذلك؟ قال: أخاف عادة العجز».

ولأبي العتاهية في ذمِّ سوف وما أشبهها:

لا يُشغلَنَّك لو وليت عن الذي أفنى القرون ولا لعلّ ولا عسى[1]

فإياك والتَّسويف، فإنه أكبر جنود إبليس[2].

• • •

(١) هذا وما قبله مستفاد من كتاب «الأمل والمأمول» المنسوب للجاحظ ص ٦١ ـ ٦٤.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجَوْزي ص ١٥٥.

القاعدة الخامسة

اعتقاد التفرغ من الشواغل في مستقبل الأيام وَهْمٌ وسَرَاب

قد يخيل لبعضهم أن الأيام ستفرغ له في المستقبل من الشواغل، وتصفو له من المكدِّرات والعوائق، وأنه سيكون فيها أفرغَ منه في الماضي أيام الشباب، ولكن الواقع المشاهد على العكس من هذا:

كلما كَبِرَت سِنُّك، كَبُرَت مسؤولياتك، وزادت علاقاتك، وضاقت أوقاتك، ونقصت طاقاتك، فالوقت في الكِبَر أضيق، والجسم فيه أضعف، والصحة فيه أقل، والنشاط فيه أدنى، والواجبات والشواغل فيه أكثر وأشدّ! فبادر ساعات العمر وهي سانحة، ولا تتعلق بالغائب المجهول، فكل ظرف مملوء بشواغله وأعماله ومفاجآته.

ولما أدركت الشيخوخة أبا عثمان الجاحظ الأديب المشهور، كان ينشد هذين البيتين متحسراً متألماً من تقاعد الضعف والكبر به:

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ ... كما قد كنتَ أيام الشباب
لقد كَذَبَتْكَ نفسك ليس ثوب ... دَريسٌ كالجديد من الثياب[1]

---

(١) «قيمة الزمن عند العلماء» للأستاذ أبي غدة ص: ٦٠ بتصرف يسير. والدريس: البالي.

وكم رأينا من أصحاب هـذا القول يتعللون ويتمنـون ثم يردون إلى أرذل ما قالوا.

وكم جنى هذا القول على إبداع مبدع، ونتاج عبقري، وثمرة مجرِّب.

أليس هؤلاء هم الذين أمسكوا الشمس!!

فـدارت الشمس دورتها، ودار الـزمان بهـا ومعها، فـإذا بأولئـك الـذين أمسكوها تجاوزتهم بل حرقتهم، فصاروا رماداً تذروه الرياح إلى يوم الجَمْعِ.

إنها الأماني والأحلام، لا تصنع حاضراً ولا تبني مستقبلاً.

قال الأحنف بن قيس: «كثرة الأماني من غرور الشيطان»[1].

ويقول سيدنا علي بن أبـي طالب رضي الله عنه في وصاة لابنه:

«إياك والاتكال على المنى، فإنها بضائع النَّوْكىٰ»[2].

وفي هذا المعنى يقول الشاعر[3]:

إذا تـمنـيتُ بـتُّ الليـل مـغـتـبـطاً إن المنى رأسُ أمـوالِ المفـاليس

وما شأن هذا الذي يرى أن التفرغ من الشواغل في مستقبـل الأيام آتٍ، إلاَّ كشأن ذلك الرجل الذي قال لـلإمام ابن سيـرين: إني رأيت في منامي أني أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح! فما تفسير هذه الرؤيا؟

فقال له: أنت رجل كثير الأماني والأحلام[4].

---

(١) «بهجة المجالس» للحافظ ابن عبد البر ١: ١٢٥.

(٢) أي الحمقىٰ.

(٣) المصدر السابق الموضع نفسه.

(٤) «الوقت في حياة المسلم» للدكتور القرضاوي ص ٤٥.

قال إسحاق بن إبراهيم بن سُنَيْن: أنشدني عمر بن محمد بن أحمد:

أنت في غفلةِ الأمل ... لست تدري متى الأجل
لا تغُرَّنْكَ صِحَّةٌ ... فهي من أوجع العِلل
كلُّ نَفْسٍ ليومها ... صَبْحَةٌ تقطعُ الأمل
فاعْمَلِ الخير واجتهد ... قبل أن تُمْنَعَ العَمَل[1]

• • •

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب ص ١١١.

القاعدة السادسة
إنما تضيع الأزمان بصحبة البَطَّالين

المرء مفطور على التأثر والتأثير، فهو ابن بيئته، وهذا ما ألمحت إليه السُّنَّة المطهرة.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنما مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السَّوْء، كحامِل المِسْكِ ونافخ الكِير[1]: فحاملُ المِسْكِ، إمَّا أن يُحْذِيَكَ[2]، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحاً طيبةً، ونافخُ الكِير: إمَّا أن يُحْرِقَ ثيابك، وإمَّا أن تجد ريحاً خبيثة»[3].

ولا أَعْدَمَ لقيمة الزمن من مصاحبة أهل التَّبَطُّل والتعطُّل الذين لَجُّوا في الجهالة واللهو والعبث، فهم من أضيع الناس لزمن، وأكثرهم تعطيلاً لعقل، وأسوأ الناس لصاحب، وأهدرهم لطاقة.

لا يعرف العمل سبيله إليهم، ولا الجدّ محلاً فيهم، ولا المعالي مكاناً في نفوسهم.

فحذار من مجالستهم والاختلاط بهم، فإن طبعك يسرق منهم وأنت

---

(١) الكِير: جلد غليظ ينفخ فيه النار.

(٢) يُحْذِيَكَ: أي يعطيك.

(٣) رواه البخاري في البيوع رقم (٢١٠١)، ومسلم في البرِّ رقم (٢٦٢٨) واللفظ له.

لا تدري، «وليس إعْدَاءُ[1] الجليس جليسه بمقاله وفِعَاله فقط، بل وبالنظر إليه! فالنظر في الصور يؤثر في النفوس أخلاقاً مناسبة إلى خلق المنظور إليه، فإن من دام نظره إلى مسرور سرّ، ومن دام نظره إلى محزون حزن. وذلك ليس في الإنسان فقط، بل في الحيوان وسائر النبات، فإنَّ الجَمَلَ الصعب قد يصير ذلولاً بمقاربة الذَّلُول، والذَّلُول يصير صَعْباً بمقاربة الصعاب، والريحانة الغضة تذبل بمجاورة الذابلة، ولهذا يلتقط أصحاب الفِلاحة الرمم عن الزرع لئلا تفسدها.

ومعلوم أنَّ الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قربت منهما، وذلك لا ينكره ذو تجربة. وإذا كانت هذه الأشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟

فقد قيل سمي الإنسان إنساناً لأنه يأنس بما يراه إن خيراً وإن شَرّاً»[2].

وإذا نظرنا إلى أولئك الذين استفادوا من لحظات أعمارهم، وكان من نتاجهم وأثرهم ما يعجب أو يدهش، نجدهم لا يصاحبون إلاَّ المجدِّين العاملين، والنابهين الأذكياء، الذين يحرصون على أوقاتهم حرصهم على حياتهم، لأن الزمن هو الحياة.

وصحبة هؤلاء الأمجاد المجدِّين المتيقظين للدقائق والثواني، كان له عظيم الأثر في همَّة مثل الإمام ابن جرير الطبري وابن عَقِيل الحنبلي وابن عساكر الدِّمَشْقِيِّ وابن تيمية وابن القَيِّم وابن النَّفِيس والمِزِّيّ والذَّهَبِيّ وابن حَجَر وأضرابهم في غزارة إنتاجهم وجدَّته.

---

(١) من العَدْوىٰ.

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصبهاني ص ١٩٣.

يقول الإمام ابن عَقِيل الحنبلي[1] صاحب كتاب «الفنون» ـ الذي مَرَّ خبره من قبل ـ : «وعصمني الله من عنفوان الشبيبة بأنواع من العصمة، وقصر محبتي على العلم وأهله، فما خالطت لعَّاباً قط، ولا عاشرت إلاَّ أمثالي من طلبة العلم».

فالحريص الموفق الذي يروم المعالي، لا تراه إلاَّ مع أهل العلم العاملين، وأولي الفضل والمجاهدة والحِكْمة والبصيرة، ليرشح عليه ما هم فيه أو بعضه، فيكون مثلهم أو قريباً منهم.

إنَّ صحبة هؤلاء تعلِّم منافسة الزمان.

وصحبة البطَّالين تعلِّم تضييع الزمان.

قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[2]:

«اعتبروا الرجل بمن يصاحب، فإنما يصاحب الرجل من هو مثله».

فنعوذ بالله من صحبة البطَّالين.

(١) كما في «المنتظم لابن الجَوْزي ٩: ٢١٣».

(٢) رواه عنه البيهقي في «شُعب الإيمان» (٧/ ٥٥) رقم (٩٤٣٩).

القاعدة السابعة
إنَّما تَكْمُلُ العُقُول بترك الفضول

إذا اكتملت العقول، اكتمل اغتنام الزمان، وتمَّ إدراك شرفه، فأنت مهما جهدت لا ترى صاحب الفضول في مطعمه، أو مشربه، أو ملبسه، أو منامه، أو زيارته، أو حديثه، أو غير ذلك من شؤونه، حريصاً على زمنه فضلاً عن أن يكون منافساً له.

من عرف قيمة الزمن لا يكون إلاَّ صاحب قصد واعتدال في أموره كلها، فهو يدري أن التوسع في المطاعم سبب النوم، وأن الشبع يُعمي القلب ويُهزل البدن ويضعفه، فتراه لا يتناول منه إلاَّ حاجته التي تقيم صلبه، دون إفراط أو تفريط، ودون تنوع واشتراط أذواق وأنفاس يؤدي إلى أن يكون ذلك أكبر مسعاه، وغاية مناه، ومنتهى أمله!

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن المؤمن يأكل في مِعًى واحد، والكافرُ يأكل في سبعة أمعاء»[1].

وهذا تمثيل لحقيقة المؤمن الذي يعلم غاية خَلْقه، فهو يأكل ليقيم صلبه فيستطيع أن يقوم بحق الاستخلاف وواجب العِمَارة، لا أنه يحيى ليأكل شأن الكافر الذي انسلخ عن تلك الغاية فالتصق بأمعائه!!

---

(١) رواه البخاري في الأطعمة رقم (٥٣٩٦).

هو يدري ـ رجلاً كان أو امرأة ـ أن الزينة مطلوبة، وأن التجمل فِطْرَةٌ في الإنسان، وأن النفوس جُبلت على إباء القبح وحبِّ الجمال، فهي تنفر من القبيح وتألف الجميل. والمسلم مطالب دائماً وأبداً أن يكون كالشامة بين الناس، ولذا فإن الشارع الحكيم قد حثَّ على ذلك.

يقول الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾. [الأعراف/ ٣١].

ويقول الرسول ﷺ:

«إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رِحَالَكُم، وأصلحوا لباسَكُم، حتى تكونوا كأنكم شامةٌ في النَّاس، فإنَّ الله لا يُحِبُّ الفُحْشَ ولا التَّفَحُّشَ»[1].

ولكن المبالغة في الزينة المباحة، ستكون على حساب الزمن الذي هو عمر الإنسان، فتشغله عن واجباته ومهامه الأساسية في الحياة، هذا إلى جانب إضاعة المال وتبذيره.

ولا يشك كل بصير مدرك أن وراء دور الأزياءالكبيرة وإعْلَامِهَا، أيدياً مشوبة مشبوهة غير فارغة، أُوكِلَ إليها مهمة الإمعان في تفريغنا من داخلنا وملء ظواهرنا بالتافه من العَرَض.

ولذلك نجد النبيَّ ﷺ يدعو إلى الاقتصاد في الزينة والاعتدال في التجمل.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» ٤: ١٨٠، وأبو داود في اللباس رقم (٤٠٨٩) عن سهل بن الحنظلية، واللفظ له، وإسناده حسن. والفحش: الرديء من القول القبيح. والتفحش: التَّفَعُّل منه.

فعن عبد الله بن بُرَيْدَة أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: عبيدٌ، قال:

«**إنَّ رسول الله ﷺ كان ينهى عن كثير من الإرْفَاه**»[1].

والإرفاه: «الاستكثار من الزينة وأن لا يزال يهيِّىء نفسه»[2].

والحريص على زمن أيضاً لا يعرف فضولاً في زيارة الآخرين، ولا تافهاً من القول ممتداً، فهو حريص على زمن غيره كحرصه على زمن نفسه، فتراه في زيارته لا يتعدى مقصدها، وتسمعه في قوله فلا يتجاوز النافع الخيِّر المحتاج له.

وهذا أدب الإسلام ومنهجه، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو لِيَصْمُتْ**»[3].

وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ:

«**كان ينهى عن قِيلَ وقالَ، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومَنْعٍ وهات...**»[4].

وروي عن عبد الله بن عمر، أنه قيل له: لو دعوت لنا بدعوات، فقال: اللهم اهدنا وعافنا وارزقنا. فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن؟

---

(١) رواه النَّسَائي في الزينة ٨: ١٨٥، واللفظ له، وأبو داود في الترجل رقم (٤١٦٠) مطولاً، وهو حديث حسن.

(٢) «معالم السنن» للخطَّابي ٦: ٨٣.

(٣) رواه البخاري في الرِّقاق، رقم (٦٤٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري في الرِّقاق، رقم (٦٤٧٣).

فقال: أعوذ بالله من الإسهاب[1].

وفي رسالة لعمر بن عبد العزيز: «مَنْ عَدَّ كلامه من عمله، قَلَّ كلامُه إلاَّ فيما ينفعه»[2].

وقال الإمام الفقيه الشاعر منصور بن إسماعيل التميمي ـ المتوفى ٣٠٦هـ ـ:

تَعَمَّدْ لحذفِ فضولِ الكلامِ إذا ما نَأَيْتَ وعند التَّدَاني
ولا تكثرنَّ فخير الكلامِ الـ ـقليل الحروفِ الكثير المعاني[3]

والضنين بزمانه الحريص عليه، إن سُئِلَ يجيب على قَدْر السؤال لا يتعداه.

قال الأعمش:

«كان إبراهيم ـ يعني النَّخَعي ـ إذا سُئِلَ عن شيءٍ لم يُجب فيه إلاَّ جوابَ الذي سئل عنه»[4].

وهو كذلك إذا سأل، لم يسأل عمّا لم يكن، مُفْتَرِضاً أو متعالماً.

قال زيد المِنْقَري:

«جاء رجل يوماً إلى ابن عمر فسأله عن شيء لا أدري ما هو، فقال له

---

(١) «بهجة المجالس» لابن عبد البرِّ ١: ٦٠.
(٢) «سِيَر أعلام النبلاء» للذَّهَبِيِّ ٥: ١٣٣.
(٣) «بهجة المجالس» لابن عبد البرِّ ١: ٦١.
(٤) رواه الدَّارِمي في «سننه» ١: ٥٦.

ابن عمر: لا تسأل عمَّا لم يكن، فإني سمعت عمر بن الخطَّاب يلعن من سأل عمَّا لم يكن»[1].

وعن عامر قال: «سئل عمَّار بن ياسر عن مسألة، فقال: هل كان هذا بَعْدُ؟ قالوا: لا، قال: دعونا حتى تكون، فإذا كانت تجشمناها لكم»[2].

وعن عمر رضي الله عنه قال: «أُحَرِّجُ عليكم أن تسألوا عمَّا لم يكن، فإنَّ لنا فيما كان شغلاً»[3].

• • •

(١) رواه الدَّارِمي في «سننه» ١: ٥٠.

(٢) المصدر السابق، نفس الموضع، عن أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت نحو ذلك.

(٣) «فتح الباري» ١٣: ٢٦٦، وهو عند الدَّارِمي ١: ٥٠ بنحوه.

القاعدة الثامنة

ترويحُ النَّفْسِ بِقَدْرِهِ وَوَجْهه كسبٌ لِلزَّمان والقَلْبُ إذا كَلَّ عَمِيَ

من المقرر المعلوم أن قدوتنا في الحفاظ على الزمن وإعماره على وجهه وفي كل شأن وأمر، سيدنا رسول الله ﷺ؛ والناظر في السيرة النبوية يجد أنَّ هَدْي الفعل منه ﷺ كان يغلب هدي القول، لما لسلطان الفعل من أثر على النفوس مكين يتجاوز أثر القول ويتعداه، ولذا كنت ترى الصحابة رضوان الله عليهم ومن اهتدى بهديهم بَعْدُ، كُلَّهُمْ مصاحف حَيَّة فاعلة، لا مصاحف تقرأ وتُركن.

وكان من جملة هديه ﷺ مؤانسته لصحبه، ومداعبته لأهله، وممازحته لإخوانه ومباسطته إياهم، وملاعبته للصغار وملاطفته لهم.

ويكفي في هذا المقام ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها:

«أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر، قالت: فسابقته فسبقته على رجليَّ، فلما حملتُ اللحمَ، سابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك السَّبْقَة»[1].

وعنها رضي الله عنها، أنها قالت:

«كان الحَبَشُ يلعبون بِحِرَابهم، فسترني رسول الله ﷺ وأنا أنظر،

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد، رقم (٢٥٧٨)، وهو حديث صحيح.

فما زِلْتُ أنظر حتى كنتُ أنا أنصرفُ، فاقْدُرُوا قَدْر الجارية الحديثةِ السِّنِّ تسمع اللهو»[1].

وكان ذلك منه ﷺ إدراكاً لحقيقة النفس البشرية، وتلبية لنداء الفطرة، فتمكين القلوب من حقها في الراحة، وترويح النفوس بأضرب من اللهو المباح، يجعل المرء أقدر على مواصلة عطائه، بل أكثر عطاءً واستفادة من زمانه.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه[2]:

«إني لأستجِمُّ لقلبي بالشيء من اللهو، ليكون أقوى لي على الحق».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[3]:

«لا تُكره قلبك، إنَّ القلب إذا أُكره عَمي».

وعن حمّاد بن زيد قال[4]:

«كان الزهري يحدِّث ثم يقول: هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أحاديثكم، فإن الأذُنَ مَجَّاجَةٌ، وإنَّ للنَّفْس حَمْضَة».

قال الزُّهْرِيُّ[5]: «والمعنى أن الآذان لا تعي كل ما تسمعه، وهي مع ذلك ذات شهوة لما تستظرفُه من غرائب الحديث ونوادر الكلام».

---

(١) رواه البخاري في النكاح، رقم (٥١٩٠).

(٢) كما في «بهجة المجالس» لابن عبد البرِّ: ١: ١١٥.

(٣) رواه عنه محمد بن عثمان الأدْرَعِي في كتاب «الوسوسة» كما في «الجامع الكبير» ٢: ٥٥٢.

(٤) رواه ابن عبد البرِّ في «جامع بيان العلم» ١: ١٠٤.

(٥) كما في «لسان العرب» لابن منظور، مادة: (حمض) ٧: ١٤١.

وهذا الترويح، وتلك الراحة، ينبغي أن يكون بِقَدْرٍ لا يتجاوزه المرء، وأن يكون كذلك محكماً بالضوابط الشرعية لا يتعداها. وهذا ما تراه واضحاً في قوله ﷺ للصحابي الجليل حنظلة الأُسَيِّدِيِّ التميمي[1] في الحديث المشهور: «**ولكن يا حنظلةُ، ساعةً وساعةً**» وكررها ثلاث مرات[2].

وعن معاوية بن حَيْدَة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**وَيْلٌ للذي يحدِّثُ بالحديث ليضحكَ به القومَ فيكذبُ، وَيْلٌ له، وَيْلٌ له**»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

«**قالوا يا رسول الله إنك تُدَاعِبُنا؟ قال: إني لا أقول إلاَّ حَقّاً**»[4].

وما أفقه تلك المرأة التي رآها الأصمعي في البادية وبيدها سُبْحَة وقفت تكتحل وتتزين، فقال لها: أين هذا من هذا؟ فأنشأت تقول:

فللنُّسْكِ مني جانب لا أضيعُه ... وللهو مني والبَطالة جانب[5]

قال الأصمعي: ففهمت أنها امرأة صالحة ذات زوج تتجمل له.

فالمرء غير مضيِّع لزمانه إن تَفَكَّهَ أو مازح أو روَّح عن نفسه بلهو مباح على الصفة التي تقدمت، وهو لا شك من أشدهم تضييعاً له إن كان ذلك ديدنه وشغله وخُلُقه.

---

(١) ويعرف بحنظلة الكاتب، إذ كان من كتّاب النبي ﷺ. انظر: «المصباح المضيّ في كتّاب النبيِّ الأميِّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي» لابن حَدِيدة الأنصاري ١: ٩٦ ـ ٩٨.

(٢) رواه مسلم مطولاً في التوبة، رقم (٢٧٥٠).

(٣) رواه الترمذي في الزهد، رقم (٢٣١٥) وقال: «حديث حسن».

(٤) رواه الترمذي في البر والصلة، رقم (١٩٩٠)، وقال: «حسن صحيح».

(٥) ذكره ابن عبد ربه في «العقد الفريد» ٣: ١٢.

القاعدة التاسعة

دَوَامُ العَطَاء ولو كان قليلاً يَكونُ منه ما يُعْجِز

من السنن الكونية، أن العطاء غير المستمر لا يكون منه إعْمارٌ وتشييد، ولا يحقق، مؤمَّلاً أو مقصداً.

ولو استنطقنا غابر الحضارات وحاضرها عمَّا إذا كان ما فيها من إبداع ورقي وثقافة وعلم ومدنية، قد وجد طفرة بين يوم وليلة، لأعلمتنا أنه كان خلاصة عقول وأيد ونفوس دائبة لا تعرف الكلال أو الوهن، مستغرقة بإخلاصها وبما تحمل من مبدأ وفكر، طيلة سنين وسنين، بل قرون وقرون.

كُلُّ نتاج بشري يبدأ في أوله صغيراً ثم مع الدوام والعزيمة الماضية يكبر ويكبر حتى يكون كما أريد له صَنْعَةً ووظيفة، والعاجز من بدأ ثم وقف متعللاً ببعد الطريق ووعورة المقصد، فرضي لنفسه بيومه، أي رضي لها بالدَّعَة والإهمال، فهو في عداد الموتى قبل أن يموت، لأن الحي الموفق من بدأ وتابع واستثمر كل ما يملك بالحق حتى ينجز ما نَشَدَ ورام.

أكان يمكن لمثل الإمام أبي حاتم الرَّازي أن يصنِّف كتابه «المسند» في ألف جزء[1]!

---

(١) تقدَّم أن الجزء يساوي (٢٠) ورقة.

ولمثل الإمام الطبري أن يزيد عدد أوراق مصنفاته الجليلة على نصف مليون ورقة!

ولمثل الإمام ابن عَقِيل الحنبلي أن يصنف كتابه «الفنون» في ثمانمائة مجلدة!

ولمثل الحافظ ابن عساكر أن يصنف كتابه «تاريخ دمشق» في ثمانين مجلدة كبيرة!

ولمثل شيخ الطبِّ في زمانه ابن النَّفِيس أن يصنف كتابه الطبي الذي سمَّاه «الشامل» في ثمانين مجلدة!

ولمثل الإمام ابن تيمية التي أربت مصنفاته على أربعمائة مصنف من نخب العلم ودقاقه!

وسواهم في سواها مما لا يحيطه حصر ولا عدد، لولا العزيمة الماضية والهِمَّة العالية، ومتابعة العمل، ودوام العطاء، ورصف المسألة بجوار المسألة، وتقييد الخاطرة تلو الخاطرة، ووضع النظير مع النظير وهكذا، مع محاسبة للنفس على دقائق العمر وثوانيه، متوجاً ذلك كله بصدق النية وصدق التوكل!

وما أصدق الشاعر الأديب بهاء الدين ابن النحاس الحلبي في قوله:

اليومَ شيءٌ وغداً مثلُه ... مِنْ نُخَبِ العلم التي تلتقط
يُحَصِّلُ المرء بها حِكْمةً ... وإنما السَّيْلُ اجتماعُ النُّقط[1]

ولإمام أبي إسماعيل الهَرَوي رحمه الله في «منازل السائرين»[2]،

---

(١) ذكرهما له السيوطي في ترجمته في «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» ١: ١٤.

(٢) ٣: ٣.

كلمة نفيسة غالية في تعريف (الهِمَّة) ـ التي لا يكون دوام العطاء إلاَّ بها ـ إذ يقول: «الهِمَّة: ما يملك الانبعاث للمقصود صِرْفاً، لا يتمالك صاحبها ـ أي على المهلة ـ ، ولا يلتفت عنها».

ويشرح الإمام ابن القَيِّم في «مدارج السالكين»[1] ذلك، فيقول:

«والهِمَّةُ: فِعْلَةٌ من الهَمِّ، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة. فالهَمُّ مبدؤها، والهِمَّةُ نهايتها.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: في بعض الآثار الإلهية يقول الله تعالى: «إني لا أنظر إلى كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى هِمَّتِه».

قال: والعَامَّةُ تقول: قيمة كُلِّ امرىء ما يحسن، والخاصة تقول: قيمة كُلِّ امرىء ما يطلب. يريد: أن قيمة المرء همته ومطلبه» انتهى.

والكلام على هذه القاعدة يوجب علينا التنبيه على أمر له أهميَّته، وهو:

أنَّ العمل مطلوب، والهِمَّة مرجوة، والمتابعة شرط، بيد أن هذا منوط بأن لا يرهق الإنسان نفسه إرهاقاً يُضعف من قوته، ويحول دون استمرار عطائه وبنائه، ففي ذلك تضييع للزمان وثمرته من حيث يظن أنه يحافظ عليه.

روت السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال:

«عليكم من الأعمال ما تُطيقونَ، فإن الله لا يملُّ حتَّى تملُّوا، وإنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله ما دُوومَ عليه وإن قَلَّ»[2].

• • •

(١) نفس الموطن السابق.

(٢) رواه البخاري في الإيمان، رقم (٤٣)، ومسلم في صلاة المسافرين، رقم (٧٨٢)، واللفظ له.

القاعدة العاشرة

مَن شَغَلَ نَفْسَهُ بغير المهم، ضَيَّعَ المهم وَفوَّتَ الأهم

إنه خامس الخلفاء الراشدين، أبو حفص عمر بن عبد العزيز الأموي ـ المولود سنة (٦١هـ) والمتوفى سنة (١٠١هـ) ـ، أدرك أن العمر قصير، والتبعات جسام، والإرْث مثقل، والأمانة متسعة، والموت أدنى إلى المرء من شِرَاك نَعْلِه، فكان أن اختطَّ لنفسه من أول أيام خلافته سنة (٩٩هـ)، أن يبدأ بالأهم فالمهم، وبالأفضل فالفاضل، فأحدث في مدة خلافته القصيرة للغاية ـ سنتان ونصف السنة ـ، انقلاباً غيَّر به وجه الخلافة في مبناها ومعناها، بما قَرَّبَهَا من صورة الخلافة على عهد الأئمة الأربعة الراشدين المهديين، فكان خامسهم.

في سنتين ونصف ومع هذا الإرث المثقل بالأخطاء والعورات، استطاع بمنَّة من الله وفضل، وصدق في العبودية، واشتغال بمهام الأمور وعظامها وآكدها، أن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعد أن ملئت في كثير من جنباتها ظلماً وجوراً!!

ولقد قال له أحد مواليه بعد جنازة الخليفة سليمان بن عبد الملك:
مالي أراك مغتمًّاً؟ قال: لِمثل ما أنا فيه فَلْيُغْتَم، ليس أحدٌ من الأمَّة إلاَّ وأنا أريد أن أُوصِلَ إليه حقَّه غيرَ كاتبٍ إليَّ فيه ولا طالبه مني[1]!!

---

(١) «سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذَّهَبِيِّ ٥: ١٢٧.

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز متأسياً بقافلة الرشد والهدي والتحرق والصدق التي سبقته من الصحابة ومن تبعهم بإحسان، والذين لولا اشتغالهم بمهام الأمور، وتقديمهم لأخطرها وآكدها، لما تمكنوا وخلال مدة لا تتجاوز قرناً من الزمان أن يفتحوا الآفاق، ويحرروا أهلها من رِبْقَةِ العبودية، وأن ينشروا الرحمة ويقيموا العدل، ويبنوا حضارة تليدة غيَّرت وجه الدنيا إلى يومنا هذا، وإلى أن يقوم الناس إلى رب العالمين.

يقول أبو الفضل العبَّاس بن الحسن بن عبيد الله بن العبَّاس ــ وكان في صَحَابة هارون الرشيد وولده المأمون، وكان عالماً شاعراً فصيحاً ــ :

«اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء، ففرغه للمهم، وأن مالك لا يغني الناس كلهم، فخصَّ به أهل الحق، وأن كرامتك لا تطيق العامَّة، فتوخَّ بها أهل الفضل، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما، فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك من ذلك. فإن ما شغلت[1] من رأيك في غير المهم إزراء بالمهم، وما صرفت من مالك في الباطل فقدته حين تريده للحق، وما عمدت من كرامتك إلى أهل النقص أضرَّ بك في العجز عن أهل الفضل، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة»[2].

ويروي الخطيب البغدادي[3] بإسناده عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما أنه قال: «العلمُ كثيرٌ، ولن تعيه قلوبكم، ولكن ابتغوا أحسنه، ألم تسمع قوله تعالى:

---

(١) في الأصل: «ما شغلك».

(٢) «تاريخ بغداد» ١٢: ١٢٦.

(٣) في كتابه «تقييد العلم» ص: ١٤١.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾. [الزمر/ ١٨].

وكان الخليفة المأمون يوصي بعض بنيه فيقول:

«اكتب أحسن ما تسمع، واحفظ أحسن ما تكتب، وحدِّث بأحسن ما تحفظ»[1].

قال الحافظ الثقة الثَّبْتُ عفَّان بن مسلم ـ المتوفى سنة ٢١٩هـ، والذي كان إذا شك في حرف من الحديث تركه ـ، وقد سمع قوماً يقولون: نسخنا كتب فلان، ونسخنا كتب فلان، فقال: «ترى هذا الضرب من الناس لا يفلحون، كنَّا نأتي هذا فنسمع منه ما ليس عند هذا، ونسمع من هذا ما ليس عند هذا، فقدمنا الكوفة فأقمنا أربعة أشهر ولو أردنا أن نكتب مائة ألف حديث لكتبنا بها، فما كتبنا إلاَّ قَدْر خمسة آلاف حديث، وما رضينا من أحد إلاَّ بالإملاء، إلاَّ شَرِيك فإنه أبى علينا.

وليعلم الطالب أن شهوة السماع لا تنتهي، والنهمة من المطلب لا تنقضي. والعلم كالبحار المتعذِّر كيلها، والمعادن التي لا ينقطع نيلها، فلا ينبغي له أن يشتغل في الغربة إلاَّ بما يستحق لأجله الرحلة»[2].

ويقول الإمام أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ[3] ـ المتوفى سنة ٢٥٥هـ ـ:

«وخَصْلَةٌ ينبغي أن تعرفها وتقف عندها، وهو أن تبدأ من العلم بالمهمِّ،

---

(١) المصدر السابق نفس الموضع.

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي ٢: ٣٠١.

(٣) في رسالته «التربيع والتدوير» ٣: ١٠٥ ـ ١٠٦ من رسائل الجاحظ.

وتختار من صنوفه ما أنتَ أنشطُ له، والطبيعةُ به أعنى، فإن القبولَ على قَدْر النشاط، والبلوغَ فيه على قَدْر العناية».

وقد ذكر الحافظ ابن حَجَر رحمه الله في «لسان الميزان»[1] في ترجمة: (صالح بن عبد القدوس الأَزْدِيّ) أنَّ من محاسن شعره قوله:

وإذا طلبت العلم فاعلم أنه ... جِمْلٌ فأبصر أيَّ شيء تحمل

وإذا علمت بأنه متفاضل ... فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل

وهذا الذي تقدم ينسحب على العلم وعلى كل عمل، فهل من عامل بصير؟

• • •

(١) ٣: ١١٤.

القاعدة الحَادية عَشْرَة
لكلِّ وقتٍ ما يملؤُه مِنَ العَمَل

جاء في وصية أبـي بكر لعمر رضي الله عنهما حين استخلفه قوله له:

«إنَّ لله حَقَّـاً بـالنهـار لا يقبله بـالليـل، ولله في الليـل حَقَّـاً لا يقبله بالنهار»[1].

يريد تذكيره رضي الله عنه أن كل ظرف مملوء بواجبه ومطالبـه، فالعمـل إذا كان في غير وقته الموضوع له، لم يقع موقعه، ولم يثمر ثمرته، مـع تفويت حَقِّ ذلك الزمن الذي شُغِلَ بغير واجبه المستحق.

وتمثل الخليفة العبقري[2] المُحَدَّث بـوصاة الخليفـة أبـي بكر الصِّـدِّيق رضي الله عنه، إلى جانب معـان أخرى كثيـرة، هي التي صبغت فترة خـلافته بصبغة متميزة ليست للخلافة بعده على فضلها وكرامتها.

ومن معالم عجز هذه الأُمَّة في حاضرهـا، أنك تـرى أعمالهـا وقراراتهـا

---

(١) «مناقب أمير المؤمنين عمـر بن الخطاب» لابن الجَـوْزي ص: ٥٦ ــ ٥٧، طبعة دار الكتب العلمية في بيروت.

(٢) سمَّاه النبـي ﷺ بذلك، ففي الحديث الصحيح الذي أخـرجه البخـاري في فضائـل الصحابة، رقم (٣٦٨٢)، عن أبـي هريرة أن النبـي ﷺ قال فيه: «فلم أر عبقرياً من النـاس يَفْري فَـرِيَّهُ» الحـديث. والعبقري: النـافذ المـاضي الـذي لا شيء يفـوتـه. وقوله: (يَفْري فَريَّه): أي يعمل عمله.

تأتي دائماً متأخرة عن أوقاتها الموضوعة لها، ضائعةً مُضَيَّعة، ولا أريد بياناً، فبلاغتنا في ذلك واضحة!!

ورحم الله عمر بن عبد العزيز ـ هذا الذي يُبْعَثُ أُمَّةً وحده[1] ـ لما قال له بعض إخوته:

يا أمير المؤمنين لو ركبت وتروَّحت، قال فمن يجزي عني عمل ذلك اليوم؟ قال: تجزيه من الغد. قال: فَدَحني عمل يوم واحد، فكيف إذا اجتمع عليَّ عمل يومين[2]؟

و «قيل لملك زال عنه ملكه: لم زال عنك ملكك؟ قال: لمدافعتي عمل اليوم إلى غدٍ»[3].

وقال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله في «حِكَمِه»[4]:

«حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد إلاَّ ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد، فكيف تقضي حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه».

ومن هنا وَقَّتَ الشارع الحكيم لكثير من الفرائض التي افترضها علينا أوقاتاً معلومةً ـ تعبداً وحِكمة ـ لا تَقْبَلُ إلاَّ فيها، فلا يجوز تقديمها ولا تأخيرها، لأن في ذلك تفويتاً للحكمة من توقيتها بذلك الوقت المعين، ولنأخذ على سبيل المثال: (صدقة الفطر)، فتوقيت إخراجها قبل صلاة العيد

---

(١) كما قال أبو جعفر الباقر. انظر «سِيَر أعلام النبلاء» ٥: ١٢٠.

(٢) «سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه مالك بن أنس وأصحابه» لابن عبد الحكم، ص: ٥٥، الطبعة السادسة، عام ١٤٠٤هـ، عالم الكتب في بيروت.

(٣) «بهجة المجالس» لابن عبد البرِّ (٢/ ٣٤٠).

(٤) ٢: ٣٧ بشرح الرندي، طبعة عيسى البابي الحلبي، دون تاريخ.

يرتبط بإغناء المحتاجين عن السؤال في هذا اليوم، فيسدوا بها خلّتهم، ويصلحوا بها من أحوالهم، فتجبر القلوب، وتتآلف النفوس، وتعم الفرحة. فإذا أُخرجت بَعْدُ هل تكون محققة لما يراد منها؟ وقس على ذلك في كثير من الفروض.

وإذا نظرنا في المكتبة الإسلامية الحافلة الثرّة، نجد فيها عنواناً يختلف عن سائرالعناوين التي فيها، يحمل اسم: (عمل اليوم والليلة)[1].

وهي كتب أفردها أصحابها لذكر ما ورد عن النبي ﷺ من الأوراد والأذكار المتعلقة بأسبابها في كل شأن من شؤون الإنسان في سائر يومه وليلته مهما كان صغيراً أو جزئياً. والاطلاع على أحد هذه الكتب يجعل المرء يدرك حقيقة بعض ما يجب عليه في يومه وليلته، نحو ربه وخالقه، ونحو دينه ودعوته، ونحو رزقه وعمله، ونحو نفسه وأسرته، ونحو إخوانه ومجتمعه.

• • •

(١) أشهر تلك المصنفات التي حملت هذا العنوان، كتاب الإمام النَّسَائي وتلميذه ابن السُّنِّي.

القاعدة الثانية عَشْرَة
لله في أيَّام دَهْرنَا نَفَحات،
فَالمُوفق مَـنْ تَعَرَّضَ لهـا

إذا كانت قيمة الزمن ترتبط بالغاية من الخلق، وهي العبادة، فإن المولى سبحانه وتعالى اختص بعض الأزمنة بخواص لم يختص بهاغيرها، ففضَّلها على سائرها، وقدَّمها على ما سواها، وندب إلى اغتنامها والتعرض لما يدركها من نفحاته، فإن العبد أقرب ما يكون إلى ربِّه فيها، يسأله العون على القيام بحق العبودية له، جديراً بالاستخلاف حقيقاً بالعمارة.

عن كعب الأحبار، قال: «إن الله تبارك وتعالى اختار ساعات الليل والنهار فجعل منهن الصلوات المكتوبة، واختار الأيام، فجعل منها الجمعة، واختار منها الشهور، فجعل منها رمضان، واختار الليالي، فجعل منها ليلة القدر، واختار البقاع فجعل منها المساجد»[1].

لقد اختص الله تعالى شهر رمضان ـ الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ورحمة ـ بخصائص ليست لسائر الشهور، فافترض صومه، واستن قيامه، وندب إلى الإكثار فيه من كل عمل صالح.

ثم اختص العشر الأخير منه، ففيه ليلة القدر التي هي خير من ألف

---

(١) رواه هنَّاد بن السَّرِيِّ في «الزهد» ٢ : ٤٧٣.

شهر، «فكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى، ثم اعتكف أزواجُهُ من بعده»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شدَّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله»[2].

وكذلك فضَّل الله تعالى أيام عشر ذي الحِجَّة على سائر أيام العام، فندب إلى العمل الصالح فيهن، واختص منها يوم عرفة ففضله عليها.

فعن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما مِنْ أيامٍ العملُ الصالحُ فيهنَّ أحبُّ إلى الله من هذه الأيام العَشْرِ، فقالوا: يا رسول الله: ولا الجهادُ في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ولا الجهادُ في سبيل الله إلَّا رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يَرْجِعْ من ذلك بشيء»[3].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما من يوم أفضلُ عند الله من يوم عَرَفَةَ، ينزل الله تبارك وتعالى السماءَ الدنيا، فيباهي بأهل الأرض أهل السماءِ، فيقول: انظروا إلى عبادي جاؤوا شُعْثاً غُبْراً، ضَاحِينَ[4]**، جاءوا من كلِّ فجٍّ عميق يَرْجون رحمتي ولم يَرَوْا**

---

(١) رواه البخاري في الاعتكاف عن السيدة عائشة، رقم (٢٠٢٦).

(٢) رواه البخاري في فضل ليلة القدر، رقم (٢٠٢٤).

(٣) رواه البخاري في العيدين، رقم (٩٦٩)، والترمذي في الصوم رقم (٧٥٧)، واللفظ له.

(٤) ضَاحِين: هو بالضَّاد المعجمة والحاء المهملة كما قيده المنذري في «الترغيب والترهيب» ٢: ٢٠١، أي: بارزين للشمس غير مستترين منها. وقد وردت في «موارد الظمآن»: (حاجِّين) بالحاء المهملة والجيم المعجمة!

عذابي. فلم يُرَ يوم أكثرُ عتيقاً من النَّار مِنْ يوم عَرَفَةَ»[1].

كما فضَّل تعالى يوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع، وجعله عيداً للمسلمين، وفرض فيه صلاة الجمعة، «وفيه ساعةٌ لا يوافِقُها عبدٌ مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلَّا أعطاه إياه»[2].

وقد اختص المولى جلَّ شأنه الثلث الأخير من الليل بمزيد فضل على سائر أجزائه. فعن عمرو بن عَنْبَسَة، قال: قلت يا رسول الله: هل من ساعة أقربُ مِنَ الأخرى؟ أو هل من ساعةٍ يُبْتَغَىٰ ذِكْرُهَا؟ قال: «نعم، إنَّ أقربَ ما يكونُ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ من العبد، جوفُ الليل الآخرِ، فإن استطعت أن تكون ممن يَذْكُرُ الله عزَّ وجلَّ في تلك الساعةِ فَكُنْ، فإن الصلاة مَحْضورةٌ مشهودةٌ إلى طلوع الشمس»[3].

وصدق الله تعالى إذ يقول في محكم التنزيل:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. [الذاريات/ ١٥ ـ ١٨].

---

(١) جُزْء من حديث رواه ابن حِبَّان في صحيحه رقم (١٠٠٦) من «موارد الظمآن» للهيثمي ـ، ورواه ابن خزيمة في «صحيحه» في الحج رقم (٢٨٤٠)، والبزَّار في «مسنده» ـ رقم (١١٢٨) من «كشف الأستار» ـ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤: ١٧، بعد أن عزاه للبزَّار: «إسناده حسن ورجاله ثقات».

(٢) رواه البخاري في الجمعة، رقم (٩٣٥) عن أبي هريرة. قال ابن المنير: «إذا عُلِمَ أن فائدة الإبهام لهذه الساعة ولليلة القدر، بعْثُ الداعي على الإكثار من الصلاة والدعاء، ولو بيَّن لا تكل الناس على ذلك وتركوا ما عداها، فالعجب بعد ذلك ممن يجتهد في طلب تحديدها». فتح الباري: ٢: ٤٢٢.

(٣) حديث صحيح، رواه النَّسائي في المواقيت مطولاً ١: ٢٧٩ ـ ٢٨٠. وقوله: «جوف الليل الآخر»: هو ثلثه الأخير. وقوله: «محضورة مشهودة»: أي تحضرها ملائكة الليل والنهار وتشهدها.

إن هـذا الاغتنام لتلك الأوقـات الفاضلة بـالقربـات والـطاعـات، يعني للمسلم شيئاً آخر أيضاً، وهو إنزاله عمله دائماً من الوقت الملائم له.

فأجزاء الليل والنهار متفاوتة قيمـة من حيث عطاء المـرء: نوعـه وقَدْره، فالحريص من يُنَزِّل كل عمل فيما يناسبه من وقت.

والبكور الذي هـو أول النهار، خيـر أوقات العمـل التي تغتنم لكل مهم ودقيق وجليل.

فعن صَخْرٍ الغامدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**اللهم بارك لأمَّتي في بُكُورِهَا**»[1]. قال: وكان إذا بعث سَرِيَّـةً أو جيشاً بعثهم أوَّلَ النهار.

وكـان صخرٌ رجـلاً تاجـراً، وكـان إذا بعث تجـارة بعثهم أول النهـار، فأثرى وكَثُرَ مالُهُ»[2].

قال الإمام النووي في «رؤوس المسائل»[3]:

«يُسَنُّ لمن له وظيفة من نحـو قراءةٍ أو عِلْمٍ شـرعي وتسبيح أو اعتكـاف أو صنعـة؛ فعله أول النهار، وكـذا نحو سفـر وعقد نكـاح وإنشـاء أمـر، لهـذا الحديث».

---

(١) أول اليـوم الفجر، وبعـده الصبـاح، فـالغَـدَاة، فـالبكـرة، فـالضحى، فـالضحـوة، فالهاجرة، فالظهر، فالرواح، فالمساء، فالعصر، فالأصيل، فـالعِشَاءالأول، فـالعِشاء الآخرة وذلك عند مغيب الشفق. «فيض القدير» ٢: ١٠٤.

(٢) رواه التـرمذي في البيـوع، رقم (١٢١٢). وقال: «حـديث صخر الغـامدي حـديث حسن»، مـع أن فيـه (عُمَـارة بن حـديـد البَجَلي) قـال في «الكـاشف» ٢: ٢٦٢: «لا يدرى من هو؟». وقـال في «التقريب»: ٢: ٤٩: «مجهـول». والحديث صحيح بمجموع طرقه.

(٣) كما في «فيض القدير» ٢: ١٠٤.

وقال إسماعيل بن أبـي أويس[1]:

«إذا هممت أن تحفظ شيئاً فنم ثم قم عند السَّحَر، فاسـرج وانظر فيـه، فإنك لا تنساه بعد إن شاء الله».

وفي كلام بعضهم: «إذا كان وَجْهُ السَّحَرِ، فاقرع عليَّ بابـي حتى تعرف موضع رأيـي»[2].

• • •

(١) كما في «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب البغدادي ٢: ٣٢١.

(٢) «أساس البلاغة» للزمخشري، مادة (وضع) ص: ٥٠٢.

القاعدة الثالثة عَشْرة

مـن طَـوى مَنَـازِلَ في مَنَـازِلَ أوشَكَ أن يفُوتَهُ ما جَـدَّ لأَجْلِهِ

رحم الله سيدنا سلمان الفارسي ورضي عنه، ما أحكمه وما أفقهه[1]، فقد روى الإمام البخاري[2] عن أبي جُحَيْفة قال:

«آخى النبي ﷺ بين سلمانَ وأبي الدرداء، فزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداء مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالت: أخوكَ أبو الدرداء ليس له حاجةٌ في الدنيا.

فجاءَ أبو الدرداءِ، فصنعَ له طعاماً، فقالَ: كُلْ، قال: فإني صائمٌ، قال: ما أنا بآكل حتى تَأكُلَ، قال: فأكل، فلما كان الليلُ ذهب أبو الدرداء يقومُ، قال: نَمْ، فنامَ، ثم ذهبَ يقومُ، فقال: نَمْ، فلما كان من آخر الليل، قال سلمانُ: قُم الآنَ، فَصَلَّيا، فقال له سلمانُ: إنَّ لربك عليك حقَّاً، ولنفسكَ عليك حقَّاً، ولأهلكَ عليك حقَّاً، فأعط كُلَّ ذي حَقٍّ حقَّهُ. فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: صَدَقَ سَلْمَانُ».

---

(١) قال سيدنا علي رضي الله عنه وقد سئل عن سلمان: «تابَعَ العلمَ الأول، والعلم الآخر، ولا يُدْرَكُ ما عنده». حِلْية الأولياء ١: ١٨٧.

(٢) في «صحيحه» في الصوم، رقم (١٩٦٨). وقوله: «مُتَبَذِّلَة»: أي لابسة لباس البِذْلة وهي المِهْنَة، والمراد أنها تاركة للبس ثياب الزينة.

وزاد الترمذي[1] فيه: «ولضيفك عليك حقًّا».

ومثله ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فإنه كان يصوم الدهر، ويقومُ الليل أبداً، فلما أُعلم النبي ﷺ بذلك، قال له:

«لا تفعل، صُم وأفطر، وقم ونم، فإنَّ لجسدكَ عليك حقًّا، وإنَّ لعينيك عليك حقًّا، وإنَّ لزوجِكَ عليك حقًّا، وإنَّ لِزَوْرِكَ عليكَ حقًّا، وإنَّ بِحَسْبِكَ أن تصومَ كلَّ شهرٍ ثلاثة أيام، فإنَّ لك بكلِّ حسنةٍ عَشْرَ أمثالها، فإنَّ ذلك صيام الدهر كلِّه»[2].

وزاد مسلم[3]: **«وإنَّ لولدكَ عليك حقًّا»**.

وهذه هي السيرة النبوية الشريفة صفحاتها تنطق بهذا التوازن ــ مع مراعاة الأهم ــ، وبتلك الوسطية في أمور النبي ﷺ جميعها، هاديةً معلِّمة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «جاء ثلاثة رَهْطٍ إلى بيوتِ أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبيِّ ﷺ، فلما أُخْبِرُوا كأنهم تَقَالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر.

قال أحدهم: أما أنا، فأنا أصلِّي الليل أبداً.

وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) في «سننه» في الزهد، رقم (٢٤١٣).

(٢) رواه البخاري في الصوم، رقم (١٩٧٥). وقوله: «إن لِزَوْرِكَ»: أي لضيفك.

(٣) في «صحيحه» في الصيام، رقم (١١٥٩).

«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأرْقُدُ، وأتزوج النساء، فمن رغب عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

كان معاذ بن جَبَل يؤم قومه، فدخل حَرَامُ ـ بن مِلْحان ـ وهو يريد أن يسقي نخله، فدخل المسجد ليصلي مع القوم، فلما رأى معاذاً طوّل، تجوّز في صلاته ولحق بنخله يسقيه، فلما قضى معاذٌ الصلاة، قيل له: إنَّ حَرَاماً دخل المسجد، فلما رآك طوّلت، تجوّز في صلاته ولحق بنخله يسقيه.

قال: إنه لمنافق، أيعجل عن الصلاة من أجل سقي نخله!

قال فجاء حَرَام إلى النبي ﷺ ومعاذٌ عنده، فقال: يا نبي الله، إني أردت أن أسقي نخلاً لي، فدخلت المسجد لأصلي مع القوم، فلما طوّل تجوّزت في صلاتي ولحقت بنخلي أسقيه، فزعم أني منافق.

فأقبل النبي ﷺ على معاذ فقال: أفَتَّانٌ أنت؟ أفتَّانٌ أنت؟ لا تطوِّل بهم، اقرأ بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و ﴿والشمس وضحاها﴾ ونحوهما»[2].

والنص غني عن أي تعليق.

---

(١) رواه البخاري في النكاح، رقم (٥٠٦٣). وقوله: «رهط»: (الرَّهط) من ثلاثة إلى عشرة. و (النَّفَرُ) من ثلاثة إلى تسعة، وكل منهما اسم جمع لا واحد له من لفظه. وقوله: «تَقَالُّوها» أي عدوها قليلة.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» ٣: ١٢٤. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢: ٧١: «ورجال أحمد رجال الصحيح». والحادثة مروية في «الصحيحين» و «السنن» لأبي داود والنَّسَائي وغيرهم من حديث جابر بن عبد الله.

لقد كان رسول الله ﷺ نبياً مرسلاً:

إمامَ دعوة ربانية قام عليها حق القيام تبليغاً وجهاداً وتمثلاً حيَّاً، في داخل الجزيرة العربية وخارجها، وهيأ لها كل أسباب النجاح والتمكن والامتداد.

ورئيس دولة، جعل ما أوحي إليه ودعا له، واقعاً مُنَظَّمَاً ومُنَظِّمَاً لأوجه الحياة كلها، وفي ظروفها المختلفة، يقود ذلك كله ويشرف عليه متابعاً مؤثراً، حتى كان ذلك الصرح الذي أقامه صَرْحاً لم تعرف ولن تعرف البشرية له مقارباً أو مماثلاً إلاَّ إذا سارت على نهجه واقتفت أثره. وليست جمهورية أفلاطون[1] ـ الحُلُم ـ، ومستدركها «النواميس» إلاَّ العيّ متمثلاً بالقصور البشري في عقل فيلسوف!!

أيَّ الجوانب نذكر في حياته ﷺ:

العلم، فالله قد ابتعثه معلِّماً متمماً لمكارم الأخلاق، فهو مَعْدِنه ومؤصله.

الذكر والخشية والزهد، فهو كما قال ﷺ: «**إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»[2].

ربّ الأسرة المؤنس الحاني الرفيق، الحافظ للحقوق، القائم بما يتوجب عليه نحو زوجاته وأولاده، كان النبي ﷺ ذلك كله، وكان في كل ذلك متوازناً مراعياً الأهم فالمهم، دون حَيْف ولا قصور.

---

(١) أقول: ما يعرف باسم (جمهورية أفلاطون) ـ خطأ ـ، هو في حقيقته كتاب «السياسة» له، وكتابه «النواميس» استدراك عليه.

(٢) رواه البخاري كما تقدَّم.

وقاعدة مراعاة الأهم فالمهم في ملء الأوقات، ضابطه: تقديم الضروري ثم الحاجيّ ثم التحسيني.

وقد تمثل هذا التوازن مع مراعاة الأهم فالمهم، صحابة رسول الله ﷺ في حياته وبعد موته، وقد تقدم، غير بعيد، خبرُ الصحابي الجليل حَرَامُ بن مِلْحَان مع سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنهما.

ويروي الخطيب البغدادي[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

«جزأت الليلَ ثلاثة أجزاء: ثلثاً أصلِّي، وثلثاً أنامُ، وثلثاً أذكر فيه حديث رسول الله ﷺ».

وخير من أقام التوازن في ملء الأوقات مع مراعاة الأهم، ممن اهتدى بهدي النبي ﷺ وصحابته من بعده، الإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحَرَّاني ـ المتوفى سنة (٧٢٨هـ) ـ رحمه الله تعالى، الذي أصبح إحدى الذرى الشامخة في تاريخ الفكر الإسلامي، بل الإنساني، والتي ترى أثرها المثمر المتميز في جميع الحركات الفكرية والعلمية والإصلاحية التجديدية في جميع أرجاء العالم الإسلامي، منذ القرن الثامن الهجري وإلى يومنا هذا.

قال الإمام الذَّهَبِيُّ في «معجم شيوخه»[2] يعرِّف بجوانب شخصية شيخه الإمام ابن تيمية، والتي شغلت عمره بعطاء ثرٍّ غير منقطع:

«شيخنا وشيخ الإسلام وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة وذكاءً وتنويراً إلهياً وكرماً ونصحاً للأمّة، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر.

سمع الحديث، وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب، وخرَّج، ونظر في

---

(١) في «الجامع لأخلاق الراوي» ٢: ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٢) كما في «شذرات الذهب» لابن العماد ٦: ٨١ ـ ٨٢.

الرجال والطبقات، وحصَّل ما لم يحصله غيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيَّال وخاطرٍ وقّاد، إلى مواضع الإشكال ميَّال، واستنبط منه أشياء لم يُسْبَق إليها.

وبرع في الحديث وحفظه، فقلَّ من يحفظ من الحديث معزواً إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل.

وفاق الناس في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليله عنده.

وأتقن العربية أصولاً وفروعاً وتعليلاً واختلافاً، ونظر في العقليات وعرف أقوال المتكلِّمين، وردَّ عليهم ونبَّه على خطئهم، وحذر، ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين.

وأوذي في ذات الله من المخالفين، وأخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكبت أعداءه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنحل وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً وعلى طاعته. وأحيا به الشام بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم، خصوصاً في كائنة التتار، وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حَلَفْتُ بين الركن والمقام لحلفتُ أني ما رأيت بعيني مثله وأنه ما رأى مثل نفسه».

ويتحدث العلَّامة مرعي الكرمي الحنبلي في «الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية»[1] عن برنامجه اليومي، فيقول:

---

(١) ص: ١٥٦ كما في كتاب «الحافظ أحمد بن تيمية» للعلَّامة أبي الحسن الندوي ص: ١٣٠.

«ولا يزال تارة في إفتاء الناس، وتارة في قضاء حوائجهم، حتى يصلي الظهر مع الجماعة، ثم كذلك بقية يومه، ثم يصلي المغرب ويُقرأ عليه الدرس، ثم يصلي العشاء، ثم يقبل على العلوم إلى أن يذهب طويل من الليل، وهو في خلال ذلك كله يقضي الليل والنهار، يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره».

وإذا ما أردنا أن ندرك نوع أشغاله وكيف كان يقدم الأهم فالمهم، فيكفي أن يقرأ أحدنا مثل هذه العناوين في ترجمته: زيادة مصنفاته على أربعمائة مصنف في مختلف العلوم، تدريسه في مدارس متعددة كالقصاعين والحنبلية والمسجد الأموي، اهتمامه بالرد على النصارى والرافضة والفلاسفة، أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، سجنه غير مرَّة في دمشق والقاهرة لقوله الحق ومجاهرته برأيه، سفره إلى القاهرة لحض السلطان على قتال التتار، تحريضه الناس على القتال ضد التتار وكونه في مقدمة المجاهدين، ذهابه لقتال الروافض في جبل كسروان، كتابته إلى صاحب قبرس للرفق بالأسارى، انتقاده الملك الناصر دون خوف، منعه الناصر من قتل العلماء، توسطه لإسقاط الضرائب عن دمشق، تعظيمه لحرمات الله، كثرة عبادته واستغفاره، وغيرها كثير[1].

وعلى دربه قَبْلُ وبَعْدُ أئمة أعلام، أهل جهاد بالسيف والقلم واللسان، وأهل تقىً وخشية وإخبات، وأهل عِلْمٍ آثارهم تنبىء عن رسوخ وإحاطة وعمق وإبداع.

---

(١) انظر كتاب «شيخ الإسلام ابن تيمية: سيرته وأخبار عند المؤرخين» جمع وتقديم الدكتور صلاح الدين المنجد. وانظر كتاب «الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» للبزَّار.

إن من أكبر أدواء المسلمين اليوم حركات وأفراداً، علماء وقادة، غياب سمة التوازن القائمة على مراعاة الأهم فالمهم، حيث ترى بروزاً في الفكر من جانب، وقصوراً في ارتباط بعضه بعلم الوحي ارتباطاً يضبطه ويحسن توجيهه ويضعه في موضعه من جانب آخر. أو ترى تقدماً في علم وتخصص، وقصوراً في التربية الشاملة والتطبيق الأكيد. أو ترى إقبالاً على علوم ومعارف وصنائع ومهام، مع تفويت لغيرها يكون رقي الأُمَّة، بل وجودها وكرامتها فيه.

« [لا] ينبغي أن يقع الغبن بين الشركاء، فإنه متى أخذ أحدهم فوق حقه أثرَّ الغبن وبان أثره..

ومن طوى منازل في منازل أوشك أن يفوته ما جَدَّ لأجله»[1].

• • •

(١) «صيد الخاطر» لابن الجَوْزي ص: ١٦٦.

القاعدة الرابعة عَشْرَة
بِقَدْرِ مَا تَتَعَنَّى تَنَالُ مَا تَتَمَنَّى

هـذا الـزمن زمن العجـز، وإن شئت فقـل زمن الـدَّعَـةِ والـرفـاه ومـوت الهِمم.

جَدْبٌ أنَّى اتجهت، في النفوس والعقول والأرواح.

قصورٌ في حياتنا العلمية والفكرية، فمات الإبداع وغابت القمم.

كسلٌ في الإنتاج والكسب والاكتفاء فضلاً عن الزيادة والمساهمة.

نعم نتعنّى! ولكن في استيـراد أزيـاء الفكـر وأزيـاء مـلابس الأبـدان والأقدام.

نعم نتعنّى! ولكن في استجداء أقواتنا وتضييع كراماتنا.

نعم نتعنّى! ولكن في خَـطْبِ ودِّ صنـدوق النقـد الـدولي لسـدِّ عجـزنـا وتسليم رقابنا.

نعم نتعنّى! ولكن في التشرذم والتفرق وتمكين العدو منّا.

لقد أدرك سَلَفُنَا عظم الأمانة وضخامة التبعة، وجـلال الرسـالة، فـأعدوا لها عدتها: عقيدة راسخة، وعِلْماً نافعاً، وعقولاً نيِّرة، ونفوساً صافية، وأرواحاً مشـرقة، وسيـوفاً صـادقة، وإدارة حـازمة حكيمـة، وعدالـة شـاملة، وعـزيمـة ماضية، وحفظاً لساعات العمر.

ضحُّوا من أجل رسالتهم والتمكين لها، بالغالي والرخيص، وبذلوا في سبيلها النَّفْسَ والنَّفِيس، فكان لهم ما أرادوا، حضارة إنسانية ممتدة في جذورها وفي أغصانها الباسقة الوارفة المثمرة، فكان أول قطافها: الحرية، وذلك من خلال تحريرها للنفوس من ذلِّ العبودية لغير الله سبحانه، إذ أدركت أنَّ فاقد الحرية عَبْدٌ معطَّل مسلوب. ولم يكن آخر قطافها: الإبداع في كل فن، والمشاركة في كل حقل، والمساهمة في كل تقدم، والسعي وراء كل رقي.

نعم، بقدر ما نتعنَّى ننالُ ما نتمنى، فرداً كان أو مجتمعاً، أو أُمَّة، كما قال الشاعر الفحل أبو الطيِّب المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

ونحن إذا وقفنا على تاريخ عظماء هذه الأُمَّة وغيرها من الأمم: علماء ومفكرين ومخترعين وقادة وصنَّاعاً، نجد أن أحداً منهم لم ينل ما ناله، ولم يصل إلى ما وصل إليه من عطاء ومشاركة وإسهام في البناء الحضاري إلاَّ بعد إيمان بمقصده، وبذل لأقصى طاقاته وجهده، واغتنام لدقائق العمر وثوانيه، وتحمل لكل الصعاب التي يلقاها في طريقه بصبر وعزيمة ومضاء وصدق وصمت. ومن ثَمَّ كان الوقوف على سِيَر هؤلاء الأعلام الأفذاذ ودراستها والإقبال عليها، خير حافز لنا على أن نحذو حذوهم، ونشدو شدوهم، فنكون كما كانوا، ونُسهم كما أسهموا، ونَصدق كما صدقوا، لا أن نتغنى بهم دون أن نتعنَّى مثلهم.

أنمى إلى المسامع أن أحداً في الدنيا بلغ عدد أساتذته الذين التقى بهم واستفاد منهم (سبعة آلاف) أستاذ؟! إنه أحد رجال هذه الأُمَّة الأفذاذ: (أبو سعد عبد الكريم السَّمْعاني المَرْوَزِي) ـ المولود سنة (٥٠٦هـ)، والمتوفى سنة (٥٦٢هـ)، بمرو، وله ست وخمسون سنة ـ .

وصفه الإمام الذَّهَبِيُّ في «سِيَر أعلام النبلاء»[1] بقوله:

«الإمام الحافظ الكبير الأوحد الثقة.. صاحب المصنفات الكثيرة».

ونعته الإمام السُّبْكي في «طبقات الشافعية»[2]، فقال:

«تاج الإسلام بن تاج الإسلام، محدِّث الشرق، وصاحب التصانيف المفيدة الممتعة، والرياسة والسؤدد والأصالة».

فكيف كان له هذا القدر من الشيوخ والأساتذة والمصنفات مع السؤدد والأصالة؟

لقد كان بعد أن شَقَّ الأرضَ شقّاً، ودوَّخها سفراً. ويذكر لنا الحافظ الذَّهَبِيُّ[3] بعض البلاد التي رحل إليها ملتقياً بعلمائها مستفيداً منهم راوياً عنهم، فذكر:

طَبَرِسْتَان، وأبِيْوَرد، وإسفرايين، والأنبار، وبُخَارىٰ، وبُروجِرْد، وبَسْطام، والبَصْرَة، وبَغْشُور، وبَلْخ، وتِرْمِذ، وجُرْجَان، وحَلَب، وحَمَاة، وحِمْص، وخَرْتَنْك، وخُسْروجِرد، وخوار الري، والرَّحبة، والري، وسَاوَة، وسَرْخَس، وسَمَرْقَنْد، وسِمْنان، وسِنْجار، وهَمَذان، وهَرَاة، والحرمين، والكوفة، وطوس، والكَرْخ، ونَسَا، وواسط، والمَوْصِل، ونُهاوَنْد، والطَّالقان، وبُوشَنج، والمدائن.

ثم قال: «وبِقاع يطول ذكرها، بحيث إنه زار القدس والخليل وهما بأيدي الفِرنج، تحيُّل، وخاطر في ذلك، وما تهيَّأ ذلك للسِّلَفي ولا لابن عساكر»[4].

---

(١) ٢٠: ٤٥٦.

(٢) ٧: ١٨٠.

(٣) في «سِيَر أعلام النبلاء» ٢٠: ٤٥٨ ـ ٤٦٠.

(٤) وهما رفيقاه في جُلِّ رحلاته.

وقال أيضاً[1]: «ولا يوصف كثرة البلاد والمشايخ الذين أخذ عنهم».

ولكثرة البلدان التي رحل إليها، فإنه ألف «معجم البلدان» التي سمع فيها[2].

وذكر الحافظ ابن ناصر أن «معجم شيوخه» في عشر مجلدات[3].

وقال الحافظ الذَّهَبِيُّ[4]: «قال ابن النجار: سمعت من يذكر أن عدد شيوخه سبعة آلاف شيخ، وهذا شيء لم يبلغه أحد».

وقد ذكر له العلاَّمة عبد الرحمن المعلِّمي اليماني رحمه الله في مقدمة تحقيقه لكتاب «الأنساب»، (٥٣) مصنفاً، كثير منها في أجزاء كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ «ذيل تاريخ بغداد» للخطيب: (خمسة عشر مجلداً) ألفه وسمعه الناس منه ببغداد أثناء رحلته كما ذكره ابن عساكر.

٢ ـ «تاريخ مرو» قال ابن خَلِّكان: «يزيد على عشرين مجلداً».

٣ ـ «الأنساب» طبع منه (عشرة أجزاء)، ويكتمل بصدور الجزأين الحادي عشر والثاني عشر من طبعة بيروت.

ولا يظن أنَّ الإمام السَّمْعَاني رحمه الله قد تفرَّد وحده بكثرة الشيوخ والأساتذة فإن «ممن وصف بالإكثار من الشيوخ من المتقدِّمين خَلْقٌ من

---

(١) في «السِّيَر» ٢٠: ٤٥٧.

(٢) طبقات الشافعية ٧: ١٨١.

(٣) «فهرس الفهارس والأثبات» للمحدِّث عبد الحي الكَتَّاني رحمه الله ٢: ١٠٤٠.

(٤) في «تذكرة الحفَّاظ» ٤: ١٣١٦.

الحفَّاظ: كالثَّوْرِيِّ، وابن المبارك، وأبي داود الطَّيالِسِيِّ، والبُخَاري، وابن مَنْدَه، والقاسم بن داود البغدادي قال: كتبت عن ستة آلاف شيخ.

وممن زادت شيوخه على الألف سوى هؤلاء: أبو زُرْعَة الرَّازي، ويعقوب بن سفيان، والطبراني، وابن عدي، وابن حِبَّان، وأبو الوليد بن بكير، وأبو صالح المؤذِّن، وأبو سعيد السَّمَّان: كان له ثلاثة آلاف شيخ وستمائة، وابن عساكر، وابن السَّمْعَاني، وابن النجار، وابن الحاجب، والدِّمياطي، والقُطْب الحَلَبي، والبِرْزَالي: فشيوخه ثلاثة آلاف شيخ منها ألف بالإجازة، والفخر عثمان التَّوْزَري: بلغ شيوخه نحو الألف، والذَّهَبِي، وابن رافع، والعزّ ابن جَمَاعة، والحافظ ابن حَجَر: بلغ شيوخه نحو ستمائة، والحافظ تقي الدين الفَاسِي: بَلغ شيوخه نحو خمسمائة، والسَّخَاوي، ومن لا يحصىٰ كثرة، لكن ضَعُفَ الحال في القرن التاسع وانقطع أوكاد في العاشر»[1].

أَعُلِمَ عن غير هذه الأمة أن المجلس الواحد من مجالس العلم فيها يجتمع فيه أزيد من عشرة آلاف محبرة؟!

يقول الحافظ الذَّهَبِيُّ في «تذكرة الحفّاظ»[2] بعد سرد الطبقة الثامنة من أكابر الحفَّاظ الذين منهم: الحُمَيْدي، والقاسم بن سلَّام، وعلي بن المديني، ويحيى بن مَعِين، وأحمد بن حنبل: «فهؤلاء المسمون في هذه الطبقة هم ثقات الحفاظ... فإن المجلس الواحد في هذا الوقت كان يجتمع فيه أزيد من عشرة آلاف محبرة يكتبون الآثار النبوية، ويعتنون بهذا الشأن، وبينهم نحو مائتي إمامٍ قد برَّزوا وتأهلوا للفتيا».

---

(١) «فهرس الفهارس والأثبات» للكَتَّاني ٢: ١١٢٧.

(٢) (٢/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠).

إنني كلما قرأت قول الإمام الشافعي رحمه الله:

«فلما ختمت القرآن[1]، دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به قراطيس! فكنت إذا رأيت عَظْماً يلوح، آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جرَّة كانت لنا قديماً»[2].

أدركت سِرَّ ما بلغه هو وأمثاله من أهل الصدق في الطلب، والمكابدة في التحصيل، والصبر على مشاقِّه ــ مع قلَّة ذات اليد أو عدمها ــ، من مكانةٍ في تاريخنا الحضاري إسهاماً وتفاعلاً ودفعاً وارتقاءً يندر مثاله.

فهل من عَوْدٍ حميد؟! إنَّ العَوْد أحمد.

• • •

(١) يروي الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٢: ٦٢ ــ ٦٣ بإسناده عن إسماعيل بن يحيى أنه قال: سمعت الشافعي يقول: «حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين».

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البرِّ ١: ٩٨.

ثبت المصادر

(أ)

١ ـ إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، عالم الكتب، بيروت دون تاريخ.

٢ ـ الأدب المفرد، للبخاري، ط ٢، عالم الكتب، بيروت عام ١٤٠٥هـ.

٣ ـ أساس البلاغة، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٢م.

٤ ـ الأعلام، لخير الدين الزِّرِكْلِي، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م.

٥ ـ الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، لأبي حفص البزار، ط ١، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٣٩٦هـ.

٦ ـ اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، ط ٥، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٧ ـ الأمل والمأمول، المنسوب للجاحظ، ط ٢، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٣م.

(ب)

٨ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، ط ١، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨٤هـ.

٩ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البَرِّ، دار الكتب العلمية، بيروت دون تاريخ.

(ت)

١٠ ـ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت دون تاريخ.

١١ ـ التبيان في أقسام القرآن، لابن القَيِّم، دار الكتاب العربي، بيروت دون تاريخ.

١٢ ـ تبيين كذب المفتري، لابن عساكر، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٩هـ.

١٣ ـ تذكرة الحفَّاظ، للذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت دون تاريخ.

١٤ ـ التربيع والتدوير، للجاحظ، ضمن رسائل الجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة دون تاريخ.

١٥ ـ الترغيب والترهيب، للمنذري، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٨٨هـ.

١٦ ـ تفسير الطبري. ط ٣، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨م.

١٧ ـ تقريب التهذيب، لابن حَجَر، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ.

١٨ ـ تقييد العلم، للخطيب البغدادي، ط ٢، دار إحياء السنة النبوية، بيروت ١٩٧٤م.

(ج)

١٩ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، ط ١، دار الفلاح، الكويت ١٤٠٤هـ.

٢٠ ـ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البَرِّ، دار الكتب العلمية، بيروت دون تاريخ.

٢١ ـ الجامع الكبير، للسيوطي ـ مخطوط ـ مصورة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٢ ـ الجواب الكافي، لابن القَيِّم، ط ٣، المكتبة السلفية، القاهرة ١٤٠٠هـ.

٢٣ ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية، للقرشي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٨هـ.

(ح)

٢٤ ـ الحافظ أحمد بن تيمية، لأبي الحسن الندوي، ط ٣، دار القلم، الكويت ١٣٩٨هـ.

٢٥ ـ حِلْية الأولياء، للأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت دون تاريخ.

(د)

٢٦ ـ درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ط ١، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٣٩٩هـ.

٢٧ ـ ديوان أبي العتاهية، دار بيروت ١٩٨٠م.

(ذ)

٢٨ ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصبهاني، ط ١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٩٣هـ.

٢٩ ـ ذكريات علي الطنطاوي، ط ١، دار المنارة، جدة ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦هـ.

٣٠ ـ ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب، المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥١م.

(ر)

٣١ ـ روح المعاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت دون تاريخ.

(ز)

٣٢ ـ زاد المسير، لابن الجوزي، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٤هـ.

٣٣ ـ الزهد، لهنَّاد بن السَّرِي، ط ١، دار الخلفاء، الكويت ١٤٠٦هـ.

٣٤ ـ الزهد، لوكيع بن الجرَّاح، ط ١، مكتبة الدَّار، المدينة المنورة، ١٤٠٤هـ.

(س)

٣٥ ـ سنن ابن ماجه، مصورة بيروت عن طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة ١٣٧٢هـ.

٣٦ ـ سنن الترمذي، ط ٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٨هـ.

٣٧ ـ سنن النَّسَائي، دار الكتاب العربي، بيروت دون تاريخ.

٣٨ ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(ش)

٣٩ ـ شذرات الذهب، لابن العماد، ، ط ٢، دار المسيرة، بيروت ١٣٩٩هـ.

٤٠ ـ شرح السُّنَّة، للبَغَوي، ط ٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ.

٤١ ـ شرح صحيح مسلم، للنووي، الطبعة المصرية.

٤٢ ـ شُعَب الإيمان، للبيهقي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠هـ.

٤٣ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية، للدكتور صلاح الدين المنجد، ط ١، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٦م.

(ص)

٤٤ ـ صحيح البخاري = فتح الباري.

٤٥ ـ صحيح مسلم، مصورة بيروت عن طبعة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ١٤٠٠هـ.

٤٦ ـ صيد الخاطر، لابن الجوزي، المكتبة السلفية، المدينة المنورة دون تاريخ.

(ط)

ـ طبقات الحفَّاظ، للذهبي = تذكرة الحفَّاظ.

(ع)

٤٧ ـ العبادة في الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ط ٨، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ.

٤٨ ـ العبودية، لابن تيمية، القاهرة دون تاريخ.

٤٩ ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٣م.

(غ)

٥٠ ـ غرائب القرآن، للنَّيْسَابُوري، بهامش تفسير الطبري المتقدم.

(ف)

٥١ ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب، ط ٧، دار الشروق، بيروت ١٣٩٨هـ .

٥٢ ـ فيض القدير، للمُنَاوي، ط ٢، دار المعرفة، بيروت ١٣٩١هـ .

٥٣ ـ فتح الباري، لابن حَجَر العسقلاني، دار الفكر، بيروت دون تاريخ .

(ق)

٥٤ ـ قيمة الزمن عند العلماء، لعبد الفتاح أبو غدة، ط ١، مطابع دار عالم الكتب، بيروت ١٤٠٤هـ .

(ك)

٥٥ ـ الكاشف، للذهبي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٢هـ .

٥٦ ـ الكشَّاف، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت دون تاريخ .

٥٧ ـ كشف الأستار عن زوائد البزَّار، للهيثمي، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩هـ .

٥٨ ـ كنوز الأجداد، لمحمد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق ١٣٧٠هـ .

(ل)

٥٩ ـ لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت دون تاريخ .

٦٠ ـ لسان الميزان، لابن حَجَر، ط ٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٣٩٠هـ .

(م)

٦١ ـ مجمع الزوائد، للهيثمي، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٢هـ .

٦٢ ـ مدارج السالكين، لابن القَيِّم، ذار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٢هـ .

٦٣ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت دون تاريخ .

٦٤ ـ مسند الإمام أحمد، ط ٤، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ .

٦٥ ـ المصباح المضيء، لابن حَدِيدة الأنصاري، ط ١، حيدر آباد، الهند ١٣٩٧هـ .

٦٦ ـ معالم السنن، للخطَّابي، دار المعرفة، بيروت دون تاريخ .

٦٧ ـ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار المأمون، القاهرة .

٦٨ ـ المعجم الكبير، للطبراني، ط ١، مطبعة الوطن العربي بغداد، دون تاريخ .

٦٩ ـ مفاتيح الغيب، للرازي، المطبعة البهية، القاهرة دون تاريخ .

٧٠ ـ مفتاح دار السعادة، لابن القَيِّم، دار الكتب العلمية، بيروت دون تاريخ .

٧١ ـ المنتظم، لابن الجوزي، ط ١، حيدر آباد، الهند ١٣٥٩هـ .

٧٢ ـ موارد الظمآن، للهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت دون تاريخ .

(ن)

٧٣ ـ نوابغ علماء العرب والمسلمين في علم الرياضيات، للدكتور علي عبد الله الدفاع، دار جون وايلي، نيويورك دون تاريخ .

(و)

٧٤ ـ الوقت في حياة المسلم، للدكتور يوسف القرضاوي، دار الصحوة، القاهرة دون تاريخ .

• • •

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الرابعة	٧
مقدمة الطبعة الثانية	٩
مقدمة الطبعة الأولىٰ	١١
المبحث الأول:	
قيمة الزمن في الكتاب والسنة	١٧
المبحث الثاني:	
ارتباط قيمة الزمن بالغاية من الخلق	٢٥
قواعد في قيمة الزمن وأوجه اغتنامه	٣١
القاعدة الأولى:	
الزمن هو أجل وأشرف ما يحصله العقلاء بإجماع العلماء	٣٣
القاعدة الثانية:	
من شرف الزمان أن الإنسان العاقل يحرص على اغتنامه إلى حال النَّزْع والذِّمَاء	٤٩
القاعدة الثالثة:	
الاشتغال بالندم على الوقت الفائت تضييعٌ للوقت الحاضر	٥٣
القاعدة الرابعة:	
التسويف عجز وكسل	٥٦

الموضوع	الصفحة

القاعدة الخامسة:

اعتقاد التفرغ من الشواغل في مستقبل الأيام وهم وسراب ٦١

القاعدة السادسة:

إنما تضيع الأزمان بصحبة البَطَّالين ٦٤

القاعدة السابعة:

إنما تكمل العقول بترك الفضول ٦٧

القاعدة الثامنة:

ترويح النفس بِقَدْرِه ووجهه كسب للزمان، والقلب إذا كَلَّ عمي ... ٧٢

القاعدة التاسعة:

دوام العطاء ولو كان قليلاً يكون منه ما يعجز ٧٥

القاعدة العاشرة:

من شغل نفسه بغير المهم، ضيَّع المهم، وفوَّت الأهم ٧٨

القاعدة الحادية عشرة:

لكل وقت ما يملؤه من العمل ٨٢

القاعدة الثانية عشرة:

لله في أيام دهرنا نفحات فالموفق من تعرض لها ٨٥

القاعدة الثالثة عشرة:

من طوى منازل في منازل، أوشك أن يفوته ما جَدَّ لأجله ٩٠

القاعدة الرابعة عشرة:

بقدر ما تتعنَّىٰ تنال ما تتمنَّىٰ ٩٨

ثبت المصادر ١٠٥

• • •